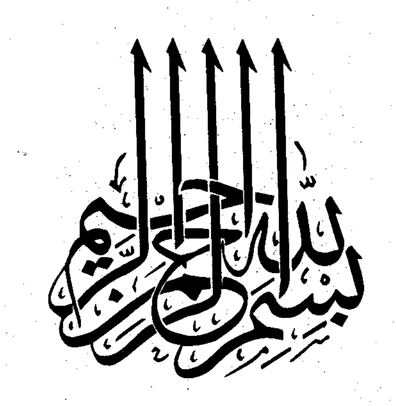
الكتاب الأول

جدد توحيدك

الكواشف الجليلة في توحيد الربوبية

تأليف

مؤمن فتحي الحداد


بسم الله الرحمن الرحيم

جدد توحيدك

الكواشف الجليلة في توحيد الربوبية

الكتاب الأول





الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨ م

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/ ٢٥١٤٢

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

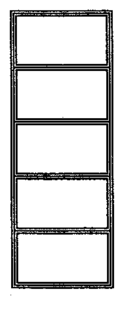


٣٦٠ ش الأهرام - الهـرم - الجيـزة

تليفاكس: ٠٢٣٥٨٣٠٧٦٨ موبايل: ٠١٠٧٦٤٧٧٤٢ - ٠١٢٧٧٢٧٣٠٦

Ghers_eg @yahoo.com

قبل قراءة هذا الكتاب:



١- كنت أربط دائما بين السعادة والإيمان.

٢- كان يتعذر علي الجمع بين مطالب الدنيا والآخرة.

٣- كنت أهمش دور الإيمان في حل مشكلاتي

٤- مفهوم السعادة عندي لا يسع أكثر من (زيادة الدخل)

٥- مفهوم الإيمان لا يخرج من باب المسجد

المحتويات

* * *

تقدمة بين يدي السلسلة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ﴾(١)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَّ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَّ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾(٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَّ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾(٣).

أما بعد،

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدى، هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها،وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد.

فإنه لا سبيل لنهضة المسلمين عامة والعرب خاصة إلا بتوحيد الكلمة، ولقد عانة الأمة زهاء قرن من الزمان أشد المعاناة في سبيل وحدة الكلمة فما نجحت، وسلكت كل السبل المستوردة فباءت بالخسران والخذلان، وأصيبت بالتشتت والتشرذم الذي لم يحدث لها عبر تاريخها الطويل.

ولقد غفلت الأمة، أو تغافلت أو استغفلها أعداؤها عن الطريق الوحيد والسبيل الأكيد لتوحيد الكلمة ألا وهو «كلمة التوحيد»

---

(١) آل عمران: ١٠٢.

(٢) النساء: ١.

(٣) الأحزاب: ٧٠-٧١.

قال تعالى. وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأرض تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)الأنفال.

تذكير من الله عز وجل بحال الأمة قبل التوحيد وبعده، فحالها قبل التوحيد « قليل – مستضعفون – تخافون أن يتخطفكم الناس» أوصاف ثلاثة ، لو تأملت حال الأمة اليوم ، لوجدتها وصفا دقيقا صادقا ينطبق عليها انطباقًا تامًا ، فالأمة اليوم قليلة وإن كانت كثيرة العدد ، فهي الكثرة الغثائية التي وصفها بها النبي ﷺفي الحديث «أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ».

و الأمة اليوم مستضعفة استضعافا ظاهرا لا يحتاج إلى دليل ، أما الوصف الثالث فهو الذي تعانيه الأمة اليوم اشد المعاناة، ولو نظرت إلى تعبير » يتخطفكم «لوجدته تعبيرا عجيبا لوصف «الأمة المتخطفة» فهي بالفعل الأمة الوحيدة الآن التي يتنافس عليها العالم بأسره على خطفها ، بل وقبل اليوم بخمسة قرون ، يوم أن أُختطفت الأندلس ، وهو التاريخ الحقيقي لبداية انحدار الأمة والذي انتهى باختطاف العراق ومن قبلها فلسطين وأفغانستان ويطمع الدجال الأمريكي في اختطاف الأمة من «البحرين» إلى «طنجة» طبقا لمشروعه الكبير «الشرق الأوسط الكبير ».

هذا هو حال الأمة حين تتخلى عن توحيدها الذي هو مصدر عزها ومما يؤثر عن أمير المؤمنين رضي الله عنه «كنا أذلاء فاعزنا الله بالإسلام فإذا ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله ».

اما حالها تحت راية التوحيد فعز ونصر ورزق ، قال الله تعالى ممتنا على الأمة ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأرض تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١) ، ثلاثة في مقابل الثلاثة الأولى، وهذه هي سنة الله عز وجل مع عباده المؤمنين قال تعالى ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ

---

(١) الأنفال: ٢٦.

آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(١) ولقد عاشت الأمة حقبة مباركة من التاريخ، ذاق الناس فيها طعم السعادة وتنعموا بخيرات الأرض وانتعشوا ببركات السماء فتكافأت دماؤهم وسعى بذمتهم أدناهم وكانوا يدا على من سواهم، ولم تشق عصاهم.

كل ذلك« تحت راية التوحيد»

لولا الجماعة ما — كانت لنا سبل

ولصار أضعفنا — نهبا لأقوانا

و لطالما حذر النبي ﷺ هذه الأمة من الشقاق والاختلاف الذي تنبأ به «فانه من يعش منك فسيرى اختلافا كثيرا » والاختلاف سنة إلاهية ماضية في جميع الأمم «ولا يزالون مختلفين» ولا مخرج من هذا الاختلاف إلا بالرجوع إلى التوحيد الخالص الذي كانت عليه الجماعة الأولى ، ولا يصلح أخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، عن أبي عامر عبد بن الحي قال : حججنا مع معاوية بن أبي سفيان ، فلما قدمنا مكة قام حين صلى الظهر ، فقال : إن رسول الله ﷺ قال «**إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ، يعنى : الأهواء كلها في النار ، إلا واحدة وهي الجماعة ، وأنه سيخرج في أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه ، لا يبقى منه عرق ، ولا مفصل إلا دخله**»(٢).

أما علاج سنة الاختلاف فبالرجوع إلى مصدر العقيدة الصافية (الكتاب – السنة) قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ**

---

(١) النور: ٥٥

(٢) أخرجه أحمد في المسند وأبو داود في كتاب السنة والدرامي في كتاب الجهاد.

مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٢). إن الاختلاف في الأفهام أمر ثابت في الجبلة البشرية ، والاختلاف في فروع العلم أمر لا حرج فيه ، اما الاختلاف في أصول الديانة وأسس التوحيد فهو الاختلاف المذموم المدمر الذي يقضى إلى التشرذم والتمزق لا محالة.

و لطالما دقق العلماء البحث في أسباب الخلاف الذي تعرضت له ملة الإسلام ومما اتفق عليه العلماء أن هناك أسبابا داخلية وأسبابا خارجية.

و إن الأسباب الخارجية لا تُعمل في هذه الأمة وتدب في جنباتها إلا عن طريق الأسباب الداخلية التي تشبه جهاز المناعة في جسم الإنسان ، فكلما ازداد قوة وبأسا كان أعظم ردعا للهجوم الخارجي.

ولقد دعا النبي ﷺ «ألا يسلط على هذه الأمة عدوا من سوى أنفسها فاستجاب الله عز وجل» فكان ذلك أمانا من شر الأسباب الخارجية. ثم دعا أيضا «ألا يجعل بأسهم بينهم» فلم تستجب مما يؤكد أن الخطر الداخلي في هذه الأمة اشد واعنف من الأخطار الخارجية. ولقد علل النبي ﷺ إن جعل الله بأسهم بينهم في حديث آخر..قال: «**يا معشر المهاجرين خمس خصال إذا أدركتموهن ، وأعوذ بالله أن تدركوهن**» ، منها «و لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل إلا جعل الله بأسهم بينهم» فهذا هو السر في تناحر الأمة فيما بينها.

و لكن مما يجدد الأمل ويحطم اليأس أن النبي ﷺ اخبر أن هذه الأمة لن تموت وأنها باقية إلى أن يأتي أمر الله فقال في الدعوة الثالثة «**ألا تهلك هذه الأمة**

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) آل عمران: ١٠٣.

بسنة بعامة، فاستجاب الله عز وجل»

و ليس هذا مجال ذكر الأسباب الداخلية والخارجية في تشتت الأمة وتمزقها ، انما أشير إشارة خاطفة واسرد سردا سريعا لهذه الأسباب.

و إن كانت الأقلام المأجورة ، والأفكار المسمومة ، والحملات المغرضة لتحصر سبب خلاف الأمة وتمزقها في اختلافها على الأمارة في الصدر الأول ونسي هؤلاء انه بعد القرون الثلاثة المفضلة ظهرت العصبية والشعوبية بين المسلمين مثل ما ظهرت في عصرنا الحديث الدعوة إلى الوطنية والقومية وغيرها من الدعوات المنتنة ، والتي يعد روادها بحق «دعاة على أبواب جهنم» من أطاعهم قذفوه فيها.

و من هذه الأسباب أيضا انتشار الجدل والميل إلى التأويل والتي نشا عنها سبب آخر ، وهو رد البدعة ببدعة مثلها ومنها الغلو والتشدد والتنطع في الدين وهو داء قديم، ومنها زهد المسلمين في العلوم الشرعية والذي بدروه نشا عن جهل مطبق بالدين سواءا كان عقيدة أو شريعة أو أخلاقا ، هذه أهم الأسباب الداخلية ، اما الأسباب الخارجية فحرب ضارية ، وحملة شرسة في كل زمان وفي كل مكان لتخريب عقيدة المسلمين ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ﴾[1]، وتتجسد هذه الأسباب الخارجية في راس الأفعى «اليهود» وهم الرأس المدبرة ، والتي بدأت منذ فجر الإسلام فما ردعهم إلا سيف محمد ﷺ ثم ظهرت فتنتهم على يد عبد الله بن سبأ «ابن السوداء» ثم النصارى الأمة العمياء الضالة المضلة ، وإن كان اليهود هم الرأس المدبرة فان النصارى هم اليد المنفذة والآلة الخبيثة التي يستخدمها يهود ثم يتلوهم المجوس والهندوس وغيرهم من أهل الملل والنحل في ارض الله فالكل في خندق واحد لحرب عقيدة التوحيد.

و قد اخبر الصادق المصدوق ﷺ باجتماع الأمم مع اختلاف مللها ونحلها على أمة الإسلام في ذلك التشبيه البليغ ، والذي شبه فيه امة الإسلام بقصعة الطعام

---

(١) البقرة: ٢١٧.

وشبه سائر الأمم بالأكلة فقال ﷺ في حديث ثوبان رضي الله عنه «**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ، كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ قَالَ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ قَالَ قُلْنَا وَمَا الْوَهْنُ قَالَ حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**»[١].

نعم قد رأت الأمة كل هذا على ارض الواقع، وتجرعت مرارته ولا تزال من كأس الزلة والهوان تتجرع. ورغم ذلك كله فهي على وعد أكيد من وعود الصادق المصدوق ﷺ بالعودة إلى العز والرفعة بعد الذل والهوان وإلى النصر والتمكين بعد الذل والخذلان المهين.

و قد خص النبي ﷺ طائفة من المسلمين لا يفارقهم النصر إلى آخر الزمان عرفوا بين علماء المسلمين بالطائفة المنصورة فعن ثوبان أيضا رضي الله عنه راوي الحديث السابق. قال : قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله ، وهم كذلك**»[٢].

و معلوم عند أهل اللغة أن الطائفة اخص واقل من الفرقة ﴿**فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾[٣]، وتوجد فروق دقيقة ولطيفة بين «الفرقة الناجية» والتي قال عنها ﷺ بعد أن بين أن الأمة ستفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة. وهي الجماعة... الحديث، وبين الطائفة المنصورة التي لا تزال على الحق ظاهرين.

فكل فرد في الطائفة المنصورة يدخل ضمن الفرق الناجية ولا عكس فليس كل من في الفرقة الناجية يدخل ضمن الطائفة المنصورة.

---

(١) رواه أحمد.
(٢) رواه مسلم.
(٣) التوبة: ١٢٢.

وسلامة المعتقد هو السمت المشترك بين الفرقة الناجية والطائفة المنصورة أما العلم والجهاد فمَعْلمان بارزان يميزان أهل الطائفة المنصورة عن غيرهم في كل زمان ومكان.

فقوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي**»

يعنى انه لا يخلو زمان من هذه الطائفة

و قوله «على الحق»

يعنى سلامة المعتقد

و قوله «ظاهرين»

يعنى أنهم يعملون في رائعة النهار بلا تخفي ولا فرار.

و يعنى «الظهور» أيضا قوة الحجة ، وشدة البأس.

أما قوله ﷺ: لا يضرهم من خذلهم ولا من ناوئهم فيعنى برد اليقين وحسن الثبات ، كما يدل على كثرة أعداء الطائفة المنصورة.

و مما يدل على أن الجهاد مَعْلَم بارز من معالم الطائفة ، قوله ﷺ في رواية «حتى يقاتل أخرهم المسيح الدجال ».

ثم إن هناك فرق دقيق لطيف بين الفرقة الناجية والطائفة المنصورة.

فان الذي تُكتب له النجاة غير من يُؤَيد بالنصر ويظفر بأعدائه.

فيمكن أن تكون من الناجين من النار يوم القيامة ، ولكن حياتك الدنيا يغلب عليها الكمد والحزن والهم والغم الناشئ عن غلبة الأعداء وظهورهم عليك.

أما صاحب الطائفة المنصورة ففضلا عن نجاته من النار يوم القيامة فانه في الدنيا من أصحاب السعادة والانشراح والسرور لأنه ظاهر على عدوه ، لا يضره كيده ولا تخذيله ولا مناوئته.

إن سلامة المعتقد ، والبيان التفصيلي لمسائل الإيمان هو أساس السعادة وبابها الكبير الذي إذا دخل منه العبد لا يشقى بعد ذلك أبدا ، اما الإيمان المجمل الهامشي لا يكاد يفعل فعله بقلب العبد ، وهذا الذي عليه جمهرة كثيرة من الناس إلا من رحم الله عز وجل قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[1].

فمن الناس من يكون حظه من الإيمان الإقرار بوجود الصانع وانه وحده الذي خلق ورزق وهذا لم ينكره حتى كفار قريش ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرض لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

و آخرون عندهم الإيمان ما هو إلا تلفظ بالشهادتين سواء كان معه عمل أو لم يكن وآخرون عندهم الإيمان عبادة الله بحكم أذواقهم ومواجيدهم وما تهواه نفوسهم من غير تقييد بما جاء به الرسول ﷺ.

و آخرون الإيمان عندهم ما قاله الآباء والأجداد.

و آخرون عندهم الإيمان ، مكارم الأخلاق وحسن المعاملة وطلاقة الوجه وإحسان الظن بكل احد ، وتخلية الناس وغفلاتهم.

يقول بن القيم رحمه الله : «و الإيمان وراء ذلك كله ، وهو حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علما والتصديق به عقدا والإقرار به نطقا والانقياد له محبة وخضوعا ، والعمل به باطنا وظاهرا ، وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان ، وكماله في الحب في الله والبغض في الله والعطاء والمنع لله ، وأن يكون الله وحده إلاهه ومعبوده» [3].

هذا هو الإيمان الذي تحيا به القلوب وتتمتع به النفوس ، وتأنس به الأرواح.

و حول تفصيل أركان الإيمان الستة الواردة في حديث جبريل عليه السلام ،

---

(١) يوسف: ١٠٣.

(٢) لقمان: ٢٥.

(٣) الفوائد : ص ١١٦.

نشرع إن شاء الله في سبك سلسلتين ذهبيتين ضمن سلسلة «جـدد» السلسـلة الأولى في الركن الأول «أن تؤمن بالله» بعنـوان «جـدد توحيـدك» والثانيـة في بقيـة أركـان الإيمان بعنوان «جدد عقيدتك» وهذا الذي بين يديك هو الجزء الأول مـن سلسـلة جدد توحيدك في «الرب والربوبية» يليه الثاني في «الله والألوهية» أما الجـزء الثالـث بعنوان «جمال الله وجلاله».

نسأل الله عز وجل المدد والعون والصدق والإخـلاص وأن يجعـل عمـلي كلـه خالصا لوجهه الكريم وأن ينفعني به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتـى الله بقـل سليم.

و أخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

تحريرًا في
صباح الجمعة ١٢ صفر ١٤٢٨
٢ مارس ٢٠٠٧
الفيوم – دار السلام

(١)

« خصائص عقيدة التوحيد ودورها في سعادة الإنسانية »

تنفرد عقيدة التوحيد دون غيرها بخصائص وسمات تميزها، فتجعل أصحابها كالشعرة البيضاء في الثور الأسود نظراً لقلتهم بين الناس وندرتهم بين الخلق وغربتهم بين أهل الأرض، حيث أنهم تحرروا من وخم الفكر الفلسفي الأرضي، ومما لحق الديانات السابقة من تحريف وتخريف، واخذوا عقيدتهم من الكتاب والسنة، وتربوا على منهج سلف الأمة، وصفهم بن القيم رحمه الله وصفاً دقيقا فقال «ومن صفات هؤلاء الغرباء الذين غبطهم النبي صلى الله عليه وسلم التمسك بالسنة إذا رغب عنها الناس وترك ما أحدثوه وإن كان هو المعروف عندهم وتجريد التوحيد وإن أنكر ذلك أكثر الناس، وترك الانتساب إلى أحد غير الله ورسوله، لا شيخ ولا طريقة ولا مذهب ولا طائفة، بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده وإلى رسوله بالإتباع لما جاء به وحده، وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقا وأكثر الناس بل كلهم لائم لهم

فلغربتهم بين هذا الخلق يعدونهم أهل شذوذ وبدعة ومفارقة للسواد الأعظم

ومعنى قول النبي «هم النزاع من القبائل» أن الله سبحانه بعث رسوله وأهل الأرض على أديان مختلفة، فهم بين عباد أوثان ونيران، وعباد صور وصلبان ويهود وصابئة وفلاسفة، وكان الإسلام في أول ظهوره غريبا، وكان من أسلم منهم واستجاب لله ولرسوله غريبا في حيه وقبيلته وأهله وعشيرته

فكان المستجيبون لدعوة الإسلام نزاعا من القبائل، بل آحادا منهم، تغربوا عن قبائلهم وعشائرهم، ودخلوا في الإسلام فكانوا هم الغرباء حقا حتى ظهر الإسلام، وانتشرت دعوته، ودخل الناس فيه أفواجا، فزالت تلك الغربة عنهم ثم أخذ في الاغتراب والترحل، حتى عاد غريبا كما بدأ، بل الإسلام الحق الذي كان عليه

رسول الله وأصحابه هو اليوم أشد غربة منه في أول ظهوره، وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة، فالإسلام الحقيقي غريب جدا وأهله غرباء أشد الغربة بين الناس، وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جدا غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة ذات أتباع ورئاسات ومناصب وولآيات، ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول، فإن نفس ما جاء به يضاد أهواءهم ولذاتهم وما هم عليه من الشبهات والبدع التي هي منتهي فضيلتهم، وعملهم والشهوات التي هي غآيات مقاصدهم وإراداتهم، فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريبا بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم، وأطاعوا شحهم، وأُعجب كل منهم برأيه كما قال النبي مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه ورأيت أمرا لا يد لك به فعليك بخاصة نفسك وإياك وعوامهم، فإن وراءكم أياما صبر الصابر فيهن كالقابض على الجمر / الحديث / ولهذا جعل للمسلم الصادق في هذا الوقت إذا تمسك بدينه أجر خمسين من الصحابة ففي سنن أبي داود والترمذي من حديث أبي ثعلبة الخشني قال سألت رسول الله عن هذه الآية يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم فقال بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام فإن من وراءكم أيام الصبر الصبر فيهن مثل قبض على الجمر للعامل فيهن أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله قلت يا رسول الله أجر خمسين منهم قال أجر خمسين منكم / الحديث / وهذا الأجر العظيم إنما هو لغربته بين الناس والتمسك بالسنة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم..فإذا أراد المؤمن الذي قد رزقه الله بصيرة في دينه، وفقها في سنة رسوله، وفهما في كتابه، وأراه ما الناس فيه من الأهواء والبدع والضلالات، وتنكبهم عن الصراط المستقيم، الذي كان عليه رسول الله وأصحابه، فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط، فليوطن نفسه على قدح الجهال وأهل البدع فيه، وطعنهم عليه، وإزرائهم به، وتنفير الناس عنه، وتحذيرهم منه، كما كان

سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه، فأما إن دعاهم إلى ذلك وقدح فيما هم عليه فهنالك تقوم قيامتهم، ويبغون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، ويجلبون عليه بخيل كبيرهم ورجله، فهو غريب في دينه لفساد أديانهم، غريب في تمسكه بالسنة لتمسكهم بالبدع، غريب في اعتقاده لفساد عقائدهم، غريب في صلاته لسوء صلاتهم،

غريب في طريقه لضلال وفساد طرقهم، غريب في نسبته لمخالفة نسبهم، غريب في معاشرته لهم لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم

وبالجملة فهو غريب في أمور دنياه وآخرته، لا يجد من العامة مساعدا ولا معينا، فهو عالم بين جهال، صاحب سنة بين أهل بدع، داع إلى الله ورسوله بين دعاة إلى الأهواء والبدع آمر بالمعروف ناه عن المنكر بين قوم المعروف لديهم منكر والمنكر معروف»[1].

ومن خصائصها أنها يقين لا تقبل الشك وإن خالفها الكثير من الناس، وقد مدح الله المؤمنين بقوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[4]، وذم الله المنافقين بقوله ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[5]، كما يلاحظ أن أمور العقيد غيبية ليست مشاهدة منظورة وهي كذلك ليست أمورا عملية، بل علمية يجب على المسلم أن يعتقدها في قلبه لان طريقها الوحي وسنبين بعد قليل أصولها في الكتاب والسنة.

---

(١) مدارج السالكين ج٢ ص ٣٧٤.
(٢) الحجرات: ١٥
(٣) البقرة: ١-٢.
(٤) آل عمران: ٩.
(٥) التوبة: ٤٥

و على الرغم من وجود عقائد لا حصر لها في زماننا هذا فليس هناك عقيدة صحيحة محفوظة بحفظ الله إلا عقيدة التوحيد عند المسلمين.

«لأنه الدين المحفوظ الذي تكفل الله بحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(١) والعقائد في غير الإسلام وإن كان في بعضها نتف من الحق، فإنها لا تمثل الحق ولا تجليه فمن أراد أن يعرف العقيدة السليمة فانه لن يجدها في اليهودية ولا في النصرانية ولا في كلام الفلاسفة وإنما يجدها في الإسلام في أصليه الكتاب والسنة ندية طرية صافية مشرقة، تقنع العقل بالحجة والبرهان، وتملئ القلب إيمانا ويقينا ونورا وحياة ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمان وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٢).

فالعقيدة الإسلامية ضرورية للإنسان ضرورة الماء والهواء، إذ هو بدون هذه العقيدة ضائع تائه يفقد ذاته ووجوده، فالعقيدة الإسلامية وحدها هي التي تجيب عن التساؤلات التي شغلت، ولا تزال تشغل الفكر الإنساني، بل تحيره: من أين جئت؟

و من أين جاء هذا الكون؟

ومن الموجد؟

وما صفاته؟

وما أسمائه؟

ولماذا أوجدنا وأوجد الكون؟

وما دورنا في هذا الكون؟

وما علاقتنا بالخالق الذي خلقنا؟

---

(١) الحجر: ٩.

(٢) الشورى: ٥٢.

و هل هناك عوالم غير منظورة وراء هذا الكون المشهود؟

و هل هناك كائنات عاقلة مفكرة غير هذا الإنسان؟

و هل بعد هذه الحياة من حياة أخرى نصير إليها؟

و كيف تكون تلك الحياة إذا كان الجواب بالإيجاب؟

فلا يجيبك عن هذه الأسئلة إلا عقيدة الإسلام الصافية النقية»[١]

فمهما بلغ الفيلسوف الألمعي الذكي من عقل جبار فكيف يجيب عن هذه الأسئلة بلا وحي؟!.

لقد أخفقت حضارة الغرب إخفاقا فاضحا إذ سندت ما يسمى بالميافزيقيا – ما وراء الطبيعة – إلى الفلسفة ورجالاتها إذ أن الموضوع التي تعالجه الفلسفة هو الموضوع ذاته الذي يعالجه الدين حيث يزعم الفلاسفة أن مباحثهم إلى معرفة اصل الوجود وغايته، ومعرفة السبيل الذي يحقق السعادة الإنسانية عاجلاً أو أجلاً وهذان هما موضوع علم الفلسفة بقسميها العلمي والعملي، وهما كذلك موضوع علم الدين.

و باستقراء هذه العقيدة الميسرة وهذا الملة السمحاء يمكن أن نلخص خصائصها فيما يلي:

١- الربانية:

إن أول ما يخص هذه العقيدة ويميزها عن غيرها أنها «من عند الله» ربانية المصدر سماوية التنزيل ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[٢]، ثم إن الله عز وجل تكفل بحفظها من عبث العابثين وتحريف المبطلين ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٣]، وذلك انه الكتاب الخاتم الذي لا يرفع من الصدور ولا السطور حتى يبدأ الله عز وجل في طي هذا

---

(١) العقيدة في الله صـ ١٥.

(٢) الشعراء: ١٩٣- ١٩٥.

(٣) الحجر: ٩.

العالم، فمن أول علامات خراب العالم ان يرفع القران من الصدور والسطور حينئذ تكون مقدمات طي العالم الذي يتبعه طي السماء ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[1].

إن ويلات العالم وبؤسه وشقائه، ما هو الا نتيجة حتمية حين استقى الناس عقائدهم وشرائعهم من بشر مثلهم، يأكلون كما يأكلون، ويشربون ما يشربون، ويمرضون كما يمرضون.

و لن يصل روّاد العالم إلى السعادة المرموقة والسلام العالمي «المزعوم» إلا أن تكون عقائدهم وشرائعهم ربانية المصدر، مستقاة من الله الذي خلق فسوى وقدر فهدى.

فصاحب عقيدة التوحيد لا يتقدم ولا يتأخر عن الوحي الصحيح الذي لا يتنافي أبدا مع العقل الصريح، والسعداء من هذه الأمة هم الذين جعلوا كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ إمامهم، وما وقع لهم من الخواطر والمعقولات عرضوه على الكتاب والسنة فان وجدوه موافقا لهما قبلوه، وما وجدوه مخالفا تركوه، واقبلوا على الكتاب والسنة ورجعوا بالتهمة على أنفسهم.

يقول أبو سليمان الداراني رحمه الله «ما حدثتني نفسي بشيء إلا طلبت منها شاهدين من الكتاب والسنة، فان أتت بهما، وإلا رددته في نحرها».

أما الأشقياء فهم الذين حُرموا بركة الوحي ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم فتشتتوا في الضلال شيعا شيعا، فمنهم من أخذ دينه عن طريق العقل والنظر، ومنهم من أخده من الفلسفة وعلم الكلام، ومنهم من أخذه عن طريق الكشف والإلهام، ومنهم من وسعه الأخذ بأنظمة البشر وقوانينه، فوقعوا جميعا في الشقاء والضلال البعيد.

---

(١) الأنبياء: ١٠٤.

إن لخاصية «الربانية» أثرها العظيم في عصمة أهل السنة وعلومهم من الخطأ والزلل والانحراف والاضطراب في فهم العقيدة وترك التخليط في مصادر التلقي والمرجعية، وتصفيتها من كل نَفَسْ كلامي مردود، أو شوب فلسفي مذموم، أو دخل مسلكي مبتدع، فالعقيدة ترجع إلى مصدر موثوق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو الوحي الذي تكلف الله بحفظه.

كما أن من ثمرات «الربانية» إنها ضمانة لتوحيد كلمة الأمة على منهج واحد، عندما تلتقي على هذا الوحي الإلهي بما فيه من موازين لا تضطرب ولا تتأرجح ولا تتأثر بالهوى والدوافع الذاتية.

«و هذا هو السبب في اتفاق أهل الحديث أنهم اخذوا الدين من الكتاب والسنة وطريق النقل فأورثهم الاتفاق والائتلاف. لذا لو طالعت جميع كتبهم المصنفة من أولهم إلى أخرهم.قديمهم وحديثهم مع اختلاف بلدانهم وزمانهم، وتباعد ما بينهم من الديار وسكون كل واحد منهم قطرا من الأقطار وجدتهم في بيان الاعتقاد على وتيرة واحدة ونمط لا يتغير يجرون فيها على طريقة لا يحيدون عنها ولا يميلون فيها، قولهم في ذلك واحد ونقلهم واحد لا ترى بينهم إختلافا، بل لو جمعت جميع ما جرى على ألسنتهم ونقلوه عن سلفهم وجدته كأنه جاء على قلب واحد وجرى على لسان واحد وهل على الحق دليل أبين من ذلك»(١)

وأما إذا نظرت إلى أهل الأهواء والبدع رايتهم متفرقين مختلفين أو شيعا وأحزابا، لا تكاد تجد اثنين منهم على طريقة واحدة يبدع بعضهم بعضا، بل يرتقون إلى التكفير يكفر الابن أباه والرجل أخاه، والجار جاره، تراهم أبدا في تنازع وتباغض واختلاف، تنقضي أعمارهم ولم تتفق كلماتهم ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾(٢)،لله دره كأنه يصف طوائف في زماننا فما اخطأ

---

(١) الحجة في بيان المحجة للاصفهاني بتصرف نقلا عن طريق الهداية ص ٢١٣

(٢) الحشر: ١٤.

شيئا من وصفهم ولا زاد شيئا في سمتهم.

٢- الشمولية:

«**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**»(١)، ما دامت عقيدة التوحيد ربانية المصدر فقد نأت عن رؤية البشر القاصرة، وعلم الإنسان المحدود فهو إذا عرف شيئا غابت عنه أشياء، وإن أحسن في جانب أساء في جوانب أخرى حيث إنه محدود بالزمان والمكان فمهما أوتي من قوة في الجسم وتوقد في الذهن فلا يزال قاصر الرؤية محدود الإدراك.

يقول الأستاذ محمد قطب حفظه الله: «إن هذه العقيدة تشمل الإنسان كله، جسمه وعقله وروحه، كما تشمل سلوكه وفكره ومشاعره، كما تشمل دنياه وآخرته».

ليس في كيان الإنسان ولا في حياته شيء لا يتصل بهذه العقيدة ولا تتصل العقيدة به.

إنها تصاحبه في كل لحظة من لحظات حياته، وفي كل عمل يعمله، أو فكر يفكره، أو شعور يختلج في ضميره.

ويتضح لنا الشمول في مجالات متعددة، وعلى محاور مختلفة، تلتقي كلها في النهاية:

١- ففي مجال الاعتقاد تشمل - كما رأينا - الإيمان بالله واليوم الأخر والملائكة والنبيين والكتب السماوية والقدر خيره وشره.

٢- وفي مجال العمل تشمل العمل للدنيا والعمل للآخرة في ذات الوقت

٣- وفي مجال الكائن البشري تشمل حركة جسمه وتفكر عقله وانطلاقه وروحه.

---

(١) الملك: ١٤.

٤- وفي مجال المجموع البشرى تشمل الفرد والجماعة والأم والدولة في ذات الوقت.

٥- وفي مجال العلاقات تشمل علاقة الإنسان بربه وعلاقته بنفسه وعلاقته بغيره (في داخل الأسرة وفي داخل المجتمع وفي ما بين المسلمين وغير المسلمين، وفيما بين الإنسان والكون كذلك!).

و لن توجد دائرة أوسع من هذه ولا اشمل. لان هذه تشمل كل شيء في الوجود!

٣- التناسق والترابط:

كما أن هذه العقيدة شملت الدنيا والآخرة والروح والجسد والفرد والجماعة ، فإنها أيضا تعمل على التناسق والترابط فيما بينها، فلا انفصام بين الروح والجسد ولا بين الدين والدنيا، انما طريقها واحد قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[1] ، فحياة المسلم من المهد إلى اللحد بل إلى يوم العرض جعلتها العقيدة خطا واحدا، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2] ، وبذلك تتصل الدنيا والآخرة وتترابط في عقيدة الإسلام.

و ضل من فصل العقيدة عن الشريعة وخاب من فرق بين العقيدة والأخلاق.

و هل ما نحن فيه من الهزائم والخذلان والكمد إلا من هذا الفصام النكد.

٤- الوسطية:

التوازن بين الأمور المتقابلة، والتوسط بين الأطراف المتباعدة على ما تقتضيه النصوص الشرعية التي هي «الوسطية» ميزة وخصيصة من خصائص العقيدة

---

(١) البقرة: ٢٠٨.
(٢) الأنعام: ١٦٢.

الإسلامية، فالتوازن بين ما يتلقاه الإنسان عن طريق الوحي وبين ما يتلقاه عن طريق وسائل الإدراك البشري «وسطية» وبين الإيمان بالقدر والأخذ بالأسباب «وسطية» والتوازن بين القيم المادية والقيم المعنوية «وسطية» وقس على ذلك كل مسائل العقيدة والشريعة والأخلاق، فستجد الوسطية سمتها والتوازن روحها.

و صدق الله القائل سبحانه ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[1].

الوسطية والعدل أهلت الأمة لتشهد وتحكم بين الأمم، والشهادة بالحق تؤهل إلى الحكم بالعدل، فوسطية الأمة كونها على الحق بين باطل من غلا وباطل من جفا إذ الحق وسط بين باطلين، باطل الغلو باطل الجفاء.

قال شيخ الإسلام رحمة الله «إن الإسلام وسط في الملل بين الأطراف المتجاذبة، فالمسلمون في صفات الله تعالى وسط بين اليهود الذين شبهوا الخالق بالمخلوق فوصفوا الخالق بالصفات التي تختص بالمخلوق وهي صفات النقص فقالوا: إن الله فقير، وإن الله بخيل وإن الله تعب لما خلق العالم، وبين النصارى الذين شبهوا المخلوق بالخالق، فوصفوه بالصفات المختصة بالخالق، فقالوا هو الله، والمسلمون وصفوا الخالق بصفات الكمال ونزهوه عن صفات النقص و نزهوه أن يكون شيء كفوا له في شيء من صفات الكمال، فهو منزه عن صفات النقص مطلقا، ومنزه في صفات الكمال أن يماثله فيها شيء من المخلوقات.

و كذلك هم في الأنبياء وسط فان اليهود كما قال الله تعالى فيهم ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾[2]. وكذلك كانوا يقتلون الأنبياء ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، والنصارى غلوا فأشركوا بهم ومن هو دونهم قال الله فيهم ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) البقرة: ٨٧.

مِنْ دُونِ اللهَّ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(١) ، والمسلمون امنوا بهم كلهم ولم يفرقوا بين احد منهم، فان الإيمان بجميع النبيين فرض واجب، ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بهم كلهم، ومن سب نبيا من الأنبياء فهو كافر يجب قتله باتفاق العلماء وفي استتابته نزاع، قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهَّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٢) ، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهَّ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾(٣) .

و كذلك المسلمون وسط في النسخ، فان اليهود قالوا: ليس لرب العالمين أن يأمر ثانيا بخلاف ما أمر به أولا، والنصارى جوزوا لرؤوسهم أن يغيروا شريعة المسيح فيحللوا ما شاءوا ويحرموا ما شاءوا، والمسلمون قالوا رب العالمين يأمر بما يشاء له الخلق والأمر، وليس لأحد من الخلق أن يغير دينه ولا يبدل شرعه، ولكن هو يحدث من أمره ما يشاء فينسخ ما يشاء، ويثبت ما يشاء.

و كذلك في الشرائع كالحلال والحرام، فان اليهود حرمت عليهم طيبات أُحلت لهم عقوبةً لهم، وعليهم تشديد في النجاسات يجتنبون أشياء كثيرة طاهرة مع اجتناب النجاسة، والنصارى لا يحرمون ما حرمه الله ورسوله، بل يستحلون الخبائث ويباشرون النجاسات، وكلما كان الراهب أكثر ملابسة للنجاسات والخبائث كان أفضل عندهم، والمسلمون أباح لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث، وهم وسط في سائر الأمور» (٤).

وسعادة العبد على قدر بعده أو قربه من هذه الصفة، وأولى هذه الأمة

(١) التوبة : ٣١.
(٢) البقرة: ١٣٦.
(٣) البقرة: ١٧٧.
(٤) طريق الهداية: ٢٢٧.

بالاتصاف بالوسطية من كان مثلها في كمال عقيدتها وصفائها ونقائها وهم أهل السنة والجماعة، فهم أهل التوسط والاعتدال بين الإفراط والتفريط وبين الغلو والجفاء، وهم وسط في فرق الأمة كما أن الأمة وسط في سائر الملل.

فهم وسط في باب صفات الله تعالى بين أهل الجحود والتعطيل وبين أهل التشبيه والتمكين.

و هم وسط بين القدرية الذين نفوا القدر وقالوا الأمر أُنف، وأنكروا علم الله ومشيئته، وبين الجبرية الذين أنكروا أن يكون للعبد فعل وإرادة، وهم وسط بين الخوارج ومعهم المعتزلة الذين خلدوا مرتكب الكبيرة في النار، وبين المرجئة الذين لا يجزمون بتعذيب احد من فساق الأمة. وبالأحرى فهم وسط بين إفراط الخوارج وتفريط المرجئة وهم أيضا وسط بين من غلا في بعض صحابة النبي ﷺ حتى جعله إلاها أو معصوما أو نبيا، وأضافوا إليه من الصفات مالا يليق إلا بالله أو بنبي من أنبيائه، وبين من جفا منهم فكفرهم واستحل سبهم ولعنهم ودمائهم.

و هم كذلك وسط بين المعتزلة الذين غلوا في المعقول وقدموه على المنقول وبين الشعرية ومن تبعهم الذين جفوا عن المعقول فنفوا العلل والحكم التي جعلها الله مناطا لأحكامه وشرائع دينه .

٥- الغيبية:

كل ما لا يقع تحت قدرات الحواس، ولا تقتضيه بداهة العقول هو ما يعرف بالغيب.

و هو من أعظم الأسس التي تبنى عليه عقيدة الإسلام، وقد افتتح كتاب الله عز وجل بالثناء على الذين يؤمنون بالغيب قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[1]

---

(١) البقرة: ٢.

قال قتادة: «آمنوا بالجنة والنار والبعث بعد الموت وبيوم القيامة وكل هذا غيب»، وقال أنس رضي الله عنه: «الذين يؤمنون بالغيب: آمنوا بالله، وملائكته،و رسله، واليوم الآخر، وجنته، وناره، وآمنوا بالحياة بعد الموت، فهذا كله غيب»

و قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾[1]

« اختلف المفسرون في تأويل الغيب هنا، فقالت فرقة: الغيب في هذه الآية: الله سبحانه، وضعفه بن العربي، وقال آخرون: القضاء والقدر، وقال آخرون، القران وما فيه من الغيوب، وقال آخرون: الغيب كل ما أُخبر به الرسول ﷺ مما لا تهتدي إليه العقول من أشراط الساعة، وعذاب القبر، والحشر، والنشر، الصراط والميزان،و الجنة، والنار، قال بن عطية: وهذه الأقوال لا تتعارض ; بل يقع الغيب على جميعها، قلت: وهذا هو الإيمان الشرعي المشار إليه في حديث جبريل عليه السلام حين قال للنبي ﷺ: فأخبرني عن الإيمان، قال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»، قال: صدقت....و ذكر الحديث» [2].

عن عبد الرحمن بن يزيد قال: كنا ثَّمَ عبد الله بن مسعود جلوسا، فذكرنا أصحاب النبي ﷺ وما سبقونا به، فقال عبد الله « إن أمر محمد ﷺ كان بَيّناً لمن رآه، والذي لا اله غيره ما آمن أحد قط أفضل من إيمان بغيب» [3].

وباستقراء استعمالات العرب لكلمة الغيب ومشتقاتها تجد أنها تقابل الشهادة لا تقابل المعقول أو الموجود، وقد جمع الله بين الغيب والشهادة في أكثر من موضع في القران الكريم – عالم الغيب والشهادة.

فلا يعنى الإيمان بالغيب الإيمان بالخرافة أو اللامعقول وهذا الذي اشتبه على كثير من الناس.

---

(١) البقرة: ٣.

(٢) طريق الهداية: ٢١٤- ٢١٥.

(٣) رواه الحاكم.

قال شيخ الإسلام بن تيمية «والرسل جاءت بما يُعجز العقل عن إدراكه، ولم تأت بما يعلم بالعقل امتناعه، لكن المسرفون فيه – أي في العقل – قدوا بوجوب أشياء وجوازها وامتناعها بحجج عقلية بزعمهم اعتقدوها حقا وهي باطل، وعارضوا بها النبوات وما جاءت به، والمعرضون عنه صدقوا بأشياء باطلة، ودخلوا في أحوال وأعمال فاسدة وخرجوا عن التمييز الذي فضل الله به بني آدم على غيرهم»

و قال رحمه الله: «والمقصود أنه ليس كل شيء يمكن علمه بالقياس ولا كل شيء يحتاج إليه في القياس، فلهذا قال الأئمة: ليس في المنصوصات النبوية قياس ولا تعارض بالأمثال، ولا تدرك بالعقول. وأما كونها لا تتعارض بالأمثال المضروبة فهذا يعنى أن المنصوص لا يعارضه دليل عقلي صحيح، وأما إنها لا تدرك بالعقول فان نفس الغريزة العقلية التي تكون للشخص قد تعجز عن إدراك الكثير من الأمور لاسيما الغائبات، فمن رام بعقل نفسه أن يدرك كل شيء كان جاهلا لاسيما إذا طعن في الطرق السمعية النبوية الخبرية، وهذا هو الذي يسلكه من يسلكه من الفلاسفة ومن يشبهه من أهل الكلام»[(١)].

لم تأت الكتب السماوية السابقة في مجال «الغيب» بمثل ما جاء به القران الكريم لذلك يتكرر وصف القرآن بأنه تفصيل الكتاب..تفصيل كل شيء ﴿**الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾[(٢)]، تبيانا لكل شيء.

فإذا أردت أن ترى القيامة رأي العين فاقرأ «إذا الشمس كورت» كما جاء في الأثر وكذلك إذا أردت أن ترى غرف الجنان وجحيم النيران، فاقرأ القرآن، واقرأ السنة أيضا فان فيها تفصيلا لما أجمل في القران. والأمثلة أكثر من أن تحصر. وأحيانا يتناول الخبر النبوي مسائل في غاية الدقة تتعلق بعالم الغيب فقصة أخر من يدخل

---

(١) طريق الهداية: ٢١٨- ٢١٩.
(٢) هود: ١.

الجنة ويخرج من النار، وكأن الأمر قد حدث بالفعل. مثلما تقرأ آيات مشاهد القيامة وكأنك تراها لذلك فانك تقرا أحيانا عن مشاهد القيامة في القـران بصيغة المـاضي وكأن الأمر قد حدث وانتهي قال تعـالى: ﴿ أَتَـى أَمْـرُ اللهِ فَـلا تَسْـتَعْجِلُوهُ سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١)، وما كانت خاصية تفصيل القرآن لعالم الغيب إلا لأنه آخر الكتب وانه الرسالة الخالدة الخاتمة لا يحتاج بعدها البشر إلى شيء آخر إلى أن يأتي أمر الله عز وجل. قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِـدْقًا وَعَـدْلًا لَا مُبَـدِّلَ لِكَلِمَاتِـهِ وَهُـوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢)، فهذه الآية قسمت القران إلى قسـمين لا ثالـث لهـما، أولاهمـا: الأخبار والأحكام فهو كما اخبر الله، صدقا في الأخبار عدلا في الأحكام

٦- العقل:

«**الغ عقلك ثم اعتقد**» مقولـة تصـدق عـلى المعتقـدات الباطلـة التـي تحفهـا الخرافات وتكتنفها الأسـاطير، فـإذا صـوبت وجهـك تجـاه القـارة الهنديـة شرقـا، واتجهت نحو أقصى شمال المعمورة وجنوبها، حيث بلاد الاسكيمو المغطـاة بـالثلوج أو أدغال إفريقيا التي يلفها القيظ والهجير، رأيت وسـمعت مصـداق هـذه المقولـة «الغ عقلك ثم اعتقد»، بل تصدق هذه المقولة أيضا على عقيـدة أكثـر أهـل الأرض اعتناقا كما يزعمـون «النصرانيـة» فـإذا تصـفحت كتـابهم المقـدس بعهديـه القـديم والجديد فلا تكاد تنتقل من صفحة إلى أخرى إلا وقرأت مصداق هذه المقولـة «الـغ عقلك ثم اعتقد ».

إن المآسي التي تعج بها ارض الله، وسفك الدماء الذي اعتاده الناس في جنبات المعمورة، ليس إلا نتيجة حتمية للعقائد الباطلة والأفكار البالية الرابضـة في أذهـان الناس وقلوبهم.

كل ذلك يثقل التبعية، ويعظم المهمة الملقـاة عـلى عـاتق الموحـدين في مشـارق

---

(١) النحل: ١.
(٢) الأنعام: ١١٥.

الأرض ومغاربها، لأنهم هم وحدهم في ارض الله الذين لا يتعارض منقولهم الصحيح من الكتاب والسنة مع المعقول الصريح لذا «فالعقل من خصائص عقيدة التوحيد والملة السمحاء».

يقول شيخ الإسلام رحمة الله: «والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه معصومون لا يقولون على الله إلا الحق ولا يتقولون عنه إلا الصدق، فمن ادعى في أخبارهم ما يناقض صريح المعقول كان كاذبا بل لا بد أن يكون ذلك المعقول ليس بصريح، أو ذلك المنقول ليس بصحيح، فما عُلم يقينا أنهم اخبروا بها يمتنع أن يكون في العقل ما يناقله، وما عُلم يقينا أن العقل حكم به يمتنع أن يكون في أخبارهم ما يناقضه، بل الأنبياء عليهم السلام قد يُخبرون بما يعجز العقل عن معرفته لا بما يعلم العقل بطلانه، فيخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول».

احترام العقل في ملة الإسلام

ليس هناك ملة من الملل تحترم العقل مثلما احترمه الإسلام، ويكفي إشارات القران الكريم انه لا ينتفع بالآيات الكونية إلا من له عقل راجح..« آيات لأولى الألباب» كثيرا ما تُكرر في القران.

عقب الآيات الكونية والقرآنية ولا شك إن رجحان العقل يجر إلى الهداية لا محالة، اللهم إلا من أعجب بعقله وتطاول به على الناس وعلى رب الناس.

قال تعالى : ﴿**وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ [1].

و في السنة الأحاديث الكثيرة التي تبين منزلة العقل، وإن كان يغلب عليها لفظ القلب باعتبار أن العقل عمل من أعمال القلب كما جاء في قوله تعالى: ﴿**أَفَلَمْ**

(١) الزمر: ١٧- ١٨.

يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(١).

يقول يوسف بن أسباط رحمه الله: «العقل سراج ما بطن، وملاك من علن، وسائس الجسد، وزينة كل احد، ولا تصلح الحياة إلا به، ولا تدور الأمور إلا عليه»(٢).

و قال عمر ﷺ «حسب الرجل دينه، ومروءته خلقه، وأصله عقله».

و ما أكثر الآيات القرآنية التي تذم التفكير الأعمى الذي هو حجاب العقل وغطاء الفهم قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾(٥).

ويقابل هذا النهي عن التقليد، دعوة القران الصريحة للتدبر والتأمل في الآيات الكونية والقرآنية.

قال تعالى داعيا إلى تدبر الآيات الكونية ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾(٦).

و في الآيات القرآنية قوله: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(٧)

---

(١) الحج: ٤٦.
(٢) الفقيه والمتفقه – الخطب البغدادي ٢/ ٣٩.
(٣) البقرة: ١٧٠.
(٤) المائدة: ١٠٤.
(٥) الزخرف: ٢٣
(٦) ق: ٦.
(٧) محمد: ٢٤.

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾[١].

شطط العقل وعلاجه

مما يقره الحكماء على اختلاف عقائدهم وأماكنهم وأزمانهم أن للعقل حدودا لا يتجاوزها كحدود السمع والبصر وبقية الحواس، وقد جمع الله عز وجل بين العقل والسمع والبصر باعتبارها وسائل التعلم والتعقل والإدراك محذرا من الشطط الذي غالبا ما يتأتى من الجهل

قال تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[٢].

هناك طائفة من البشر رزقت قوة في وسائل تعلمها وإدراكها. العقل – السمع – البصر، فكان سببا في طغيانها الفكري، وبغيها العقلي وهي طائفة الفلاسفة الذين أقحموا العقل فيما كان سببا في ضلالهم وشقائهم لأنهم استخدموه في غير محله، واستخدموه في غير موضعه فكانت النتيجة خلاف المرجو، فبدلا من أن يكون العقل سببا في الهداية كان سببا في الشقاء والضلال والغواية.

«والمنهج الذي سار عليه القران أن يجنب الناس عما لا حاجة لهم إليه ولا يستطيع إدراكهم البشري بلوغه ومعرفته، فلا يبدد الطاقة العقلية التي وهبها الله له في ما لا ينتج ولا يثمر، وليس في هذا حجر على العقل ولكن فيه توجيه لهذا العقل أن يعمل في حدوده وفي مجاله الذي يدركه فلا جدوى من الخبط في التيه، ومن إنفاق الطاقة فيما لا يملك العقل إدراكه لأنه لا يملك وسائل إدراكه»[٣].

و ليس معنى ذلك أن يخمد العقل عن التفكير ويقعد عن العمل! انما هو احترام لهذا العقل أن يعمل في مجاله ولا يتعدى حدوده.

---

(١) النساء: ٨٢.

(٢)الإسراء: ٣٦.

(٣) طريق الهداية صـ٢٣٩ بتصرف.

«وسارت السنة في ركاب الكتاب في هذا المجال، فـوردت النصـوص النبويـة تحث العقل على العمل، وتحجبه عن الركود والكسـل، وتُعـلي مـن شـأن الاجتهـاد والنظر في النصوص الشرعية لاستخراج الأحكام، وبيان فقه النـوازل المستجدة في حياة الناس، وجعلت خير الناس من تعلم العلم وعلمه، فقد ذُكـر لرسـول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم، فقال ﷺ: «**فضل العالم على العابـد كفضـلي عـلى أدناكم**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين حتـى النملة في جحرها، وحتى الحوت، ليصلون على معلم الناس الخير**». وفي هذا توجيـه العقل إلى مجاله النافع المثمر بل جعلت السنة للمجتهد المخطـأ أجـرا عـلى اجتهـاده والمصيب أجرين على اجتهاده والإصـابة، قـال رسـول الله ﷺ: «**إذا حكـم الحـاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطا فله أجر**».

وحذر الشرع على العقل الخوض فيما يضره الخوض فيه ليوفر طاقته فـيما يطيـق ويُحسن.

وخوض العقل في أمور الإلهيات باستقلال عن الـوحي مظنـة الهـلاك وسـبيل الضلال.

فثبت النهي في الكتاب والسنة عن الخوض في حقيقة الذات، وكنـه الصـفات، والقدر، وورد ذلك عن الصحابة والتابعين، وأئمة أهل السنة.

فمن ذلك ما ورد عن عبد الله بن عمر قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «تفكـروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله ».

قال المناوي في فيض القـدير: «(تفكـروا في آلاء الله) أي أنعمـه التـي انعـم بهـا عليكم. قال القاضي: والتفكـر فيهـا أفضـل العبـادات. (و لا تفكـروا في الله) فـان العقول تحير فيه..و النظر إلى ذات الله يورث الحـيرة والـدهش واضـطراب العقـل، فالصواب أن لا يتعرض لمجال الفكر في ذاته وصفاته ;لان أكثر العقول لا يحتمله».

و لعل من اشهر ما ورد في ذلك ما أُثر عن الإمـام مالـك رحمـه الله حـين جـاءه

رجل فقال: يا أبا عبد الله، (الرحمن على العرش استوى)، كيف استوى؟ قال: فما رأيت مالكا وجد من شيء كموجدته من مقالته، وعلاه الرحضاء – يعنى العرق – قال: واطرق القوم وجعلوا ينتظرون ما يأتي منه فيه قال: فسُرِيَ عن مالك فقال: « الكيف غير معقول والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فاني أخاف أن تكون ضالا وأمر به فاخرج ».

قال بن حجر رحمه الله: «قال القرطبي: الشخص الذي يبغضه الله هو الذي يقصد بخصومته مدافعة الحق ورده بالأوجه الفاسدة والشبه الموهمة، واشد ذلك الخصومة في أصول الدين كما يقع لأكثر المتكلمين المعرضين عن الطرق التي ارشد إليها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسلف أمته إلى طرق مبتدعة، واصطلاحات مخترعة وقوانين جدلية وأمور صناعية مدار أكثرها على أراء سفسطائية، أي مناقضات لفظية، ينشئ بسببها على الآخذ فيها شبه ربما يعجز عنها، وشكوك يذهب الإيمان معها، وأحسنهم انفصالا عنها أجدلهم لا أعلمهم، فكم من عالم بفساد الشبهة لا يقوى على حلها، وكم من منفض عنها لا يدرك حقيقة علمها. ثم إن هؤلاء قد ارتكبوا أنواعا من المحال لا يرتضيه البُله ولا الأطفال لما بحثوا عن تحيز الجواهر والألوان والأحوال، فاخذوا فيما امسك عنه السلف الصالح من كيفيات تعلقات صفات الله تعالى وتعديدها. واتحادها في نفسها، وهل هي الذات أو غيرها، وفي الكلام هل هو متحد أم منقسم، وفي الثاني هل ينقسم بالنوع أو الوصف، وكيف تعلق في الأزل بالمأمور مع كونه حادثا، ثم إذا انعدم المأمور هل يبقى التعلق، وهل الأمر لزيد بالصلاة مثلا هو نفس الأمر لعمر بالزكاة،ذلك مما ابتدعوه مما لم يأمر به الشارع وسكت عن الصحابة ومن سلك سبيلهم، بل نُهوا عن الخوض فيها لعلمهم بأنه بحث عن كيفية ما لا تعلم كيفيته بالعقل ;لكون العقول لها حد تقف عنده ولا فرق بين البحث عن كيفية الذات وكيفية الصفات، ومن توقف في هذا فليعلم انه إذا كان حجب عن كيفية نفسه مع وجودها وعن كيفية إدراك ما يدرك به، فهو عن إدراك غيره اعجز ».

و لهذا رجع كثير من أئمة أهل البدع – كما ذكر بن حجر – عن عقيدتهم الباطلة إلى عقيدة السنة والجماعة في أخر حياتهم، حتى وجدوا فيه ضالتهم المنشودة، وأجابت لهم على ما يدور في أذهانهم من سؤالات، وما يختلج في صدورهم من حيرة واضطرا بات. « كما حصل للإمام أبي الحسن الأشعري (٣٢٤ ه) حيث رجع إلى عقيدة أهل السنة والجماعة في «الإبانة عن أصول الديانة» بعد الاعتزال ثم التلفيق والباقلاني (٤٠٣هـ) في «التمهيد» ومثله أبو محمد الجويني (٤٣٨ هـ) والد إمام الحرمين في «رسالة في إثبات الاستواء والفوقية»، ومثل إمام الحرمين (ت ٤٧٨ هـ) في «الرسالة النظامية»، والشهرستاني (ت ٥٤٨ ه) في «نهاية الإقدام»، وفخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ ه) في «أقسام اللذات»، وغيرهم كثيرون ».

اما في ما يتعلق بالقدر فما ورد في ذلك:

– عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى أحمر وجهه حتى كأنما فُقئ في وجنتيه الرمان فقال: « **أبهذا أمرتم؟ أم بهذا أُرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تتنازعوا فيه** ».

– عن أبي بكر عبد الرحمن رفع الحديث إلى علي رضي الله عنه انه سأله فقال: «يا أبا الحسن ما تقول في القدر؟ فقال: طريق مظلم فلا تسلكه. فقال: يا أبا الحسن ما تقول في القدر؟ فقال: بجر عظيم فلا تلجه. فقال: يا أبا الحسن ما تقول في القدر؟ فقال: سر الله فلا تكلفه».

– و قال وهب بن منبه: «نظرت في القدر فتحيرت، ثم نظرت فيه فتحيرت، ووجدت اعلم الناس بالقدر اكفهم عنه، واجهل الناس بالقدر أنطقهم فيه»

– و عن زياد بن عمر القرشي عن أبيه قال: كنت جالسا عند بن عمر، فسُئل عن القدر، فقال: «شيء أراد الله ألّا يطلعكم عليه، فلا تريدوا من الله ما أبى عليكم».

- ومما ورد النهي عن الخوض في أمره الروح والغيب الذي لا يدركه العقل ولا يصل إلى حقيقته: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً(١)﴾ (٢).

و لن تُؤتي العقيدة ثمارها عند العبد إلا بعد أن تكون هي مركز تفكيره ، وأن يكون الدين محراب الروح ، وأن يكون الله سبحانه وتعالى مهوى الأفئدة وغاية المطالب العليا وإن من أخص معاني العبادة أن يكون المعبود غاية مطلب العبد وأن يستولى المعبود على فكر العبد وخواطره في ليله ونهاره وفي حله وترحاله ، وفي شدته ورخائه ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(٣)، وقد وصف النبي ﷺ العبد الذي استحوذ المال على تفكيره بانه عبد له فقال ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ» (٤) ، وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»

فالمال والشهرة والنساء من أعظم حبائل الشيطان التي يستحوذ بها على تفكير العباد. دعا الناس إليها فسارعوا الى تلبيته ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (٥)، ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي

---

(١) الإسراء: ٨٥.
(٢) طريق الهداية: ٢٤٠- ٢٤٤.
(٣) الأنعام: ١٦٢- ١٦٣.
(٤) رواه الترمذي وابن ماجة.
(٥) يس: ٦٠- ٦٢.

﴿كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١] ، والمتأمل في حديث النبي ﷺ «تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار...» يضع يده على سر تعاسة العالم وتضح عنده أسباب شقاء بني ادم فهو حديث التعساء الثلاثة أو الأصنام الثلاثة (المال والنساء والشهرة) سمه ما شئت فإنما هو حديث عظيم الشأن ينبغي أن نتدبره ونفقهه حق الفقه ونتعلمه حق التعلم.

ففي صنم المال ذكر النبي ﷺ أقله «الدرهم» وأكثره «الدينار» وكان يمكن أن يذكر أحدهما مكتفيا به عن الآخر تعبيرا عن المال ولكن ذكرهما معا فيه فائدة وهي أن عبادة المال لا تختص بأهل الكنوز والأموال الطائلة (أهل الدنانير) وأنما عبادة المال يمكن أن تلحق الفقراء أيضا "أهل الدراهم» إذا كان الدرهم همه وفكره في ليله ونهاره وحله وترحاله.

و أما صنم النساء فأثره ظاهر على أكثر أهل الأرض إلا من رحم الله وإن كانت الجاهلية الأولى قد أظهرت هذا الصنم في حلله وزينته «تبرج الجاهلية الأولى» فإن جاهلية اليوم قد عظمته تعظيما فاقت به الجاهلية الأولى بمراحل عدة.

و الصنم الثالث «الشهرة» هو الصنم الخفي لأنه قابع في أغوار النفس وأعماقها ، سماه علماء التربية الشهوة الخفية وقد ضمه النبي ﷺ إلى صنم المال وحذر أشد التحذير منهما فليس هناك أعظم فسادا لدين المرء وعقيدته من المال والشهرة وقد شبههما النبي ﷺ تشبيها بليغا فقال «مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ»[٢].

إذا فلا بد من تحطيم هذه الأصنام داخل النفس أولا ثم الكفر بكل طاغوت داخل النفس أو خارجها حينئذ تسلم لنا قلوبنا ونكون من أهل السعادة في الدنيا والآخرة ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٣] ولا طريق لنا

---

(١) إبراهيم: ٢٢.
(٢) رواه الترمذي.
(٣) الشعراء: ٨٨- ٨٩.

لتحطيم هذه الأصنام الداخلية والخارجية والظاهرة والخفية إلا أن يكون الله غايتنا والرسول قائدنا والقران دستورنا بحق.

من أجل ذلك سنشرع بعون الله وفضله ومنته في تفصيل مسائل الإيمان
أصولا وشعبا ليكون ذلك عونا لنا لنيل سعادة الدنيا والآخرة
والله الهادي إلى سواء السبيل.

* * *

(٢)

أصول الإيمان ومنابع السعادة

إن معرفة الإيمان معرفة تفصيلية، ودراسته دراسة متأنية أساس متين من أسس السعادة الحقيقية، وقد سبقت مسألة زيادة الإيمان ونقصانه(١).

وأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وإن من أوسع الطرق لزيادة الإيمان العلم النافع والعمل الصالح، والتفصيل في مسألة الإيمان لا يكون إلا وحيًّا يوحيه الله إلى أنبيائه ورسله، وقد وصف القرآن الكريم الرسول الكريم ﷺ أنه كان قبل الوحي والبعثة ما كان يعلم مسائل الإيمان التفصيلية وما كان يدري دقائقه رغم أنه كان قبل البعثة على ملة أبينا إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾(٢).

يقول العلامة السعدي – رحمه الله- عند تفسير هذه الآية: وهو هذا القرآن الكريم سماه روحًا؛ لأن الروح يحيا بها الجسد والقرآن تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين لما فيه من الخير الكثير والعلم الغزير، وهو محض منة الله على رسوله وعباده المؤمنين من غير سبب منهم، ولهذا قال: ﴿**مَا كُنتَ تَدْرِى**﴾ أي: قبل نزوله عليه ﴿**مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ**﴾ أي: ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية؛ بل كنت أميًّا لا تخط ولا تقرأ(٣).

---

(١) كتاب جد أيمانك.

(٢) الشورى: ٥٢.

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» ص٧٦٢.

إن أصول الإيمان ثابتة عند جميع الرسل لا تغيير فيها ولا تبديل وإن اختلفت شرائعهم وتباينت مناهجهم.

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِىٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِىٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾[1].

يقول سيد سابق – رحمه الله-: «وما شرعه الله لنا من الدين ووصانا به كما وصى رسله السابقين هو أصول العقائد وقواعد الإيمان، لا فروع الدين ولا شرائعه فإن لكل أمة من التشريعات العملية ما يتناسب مع ظروفها وأحوالها ومستواها الفكري والروحي: ﴿لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةً وَمِنۡهَاجًا﴾[2].

ثم قال – رحمه الله-: وإنما جعل الله هذه العقيدة عامة للبشر وخالدة على الدهر لما لها من الأثر البين والنفع الظاهر في حياة الأفراد والجماعات فالمعرفة بالله من شأنها أن تفجر المشاعر النبيلة، وتوقظ حواس الخير وتربي ملكة المراقبة، وتبعث على طلب معالي الأمور وأشرافها، وتنأى بالمرء عن محقرات الأعمال وسفاسفها.

والمعرفة بالملائكة تدعو إلى التشبه بهم، والتعاون معهم على الحق والخير، كما تدعو إلى الوعي الكامل واليقظة التامة، فلا يصدر من الإنسان إلا ما هو حسن، ولا يتصرف إلا لغاية كريمة.

والمعرفة بالكتب الإلهية إنما هي عرفان بالمنهج الرشيد الذي رسمه الله للإنسان، كي يصل بالسير عليه إلى كماله المادي والأدبي.

والمعرفة بالرسل إنما يقصد بها ترسم خطاهم، والتخلق بأخلاقهم، والتأسي

---

(١) الشورى: ١٣.

(٢) المائدة: ٤٨.

بهم باعتبار أنهم يمثلون القيم الصالحة والحياة النظيفة التي أرادها الله للناس، والمعرفة باليوم الآخر هي أقوى باعث على فعل الخير وترك الشر.

والمعرفة بالقدر تزود المرء بقوى وطاقات تتعدى كل العقبات والصعاب، وتصغر دونها الأحداث الجسام»[1].

قد يسلم عالم الفلك لما يرى من الحكمة البالغة في خلق هذا الكون، ولما يرى من ضخامته بما فيه من نجوم وكواكب ومجرات يرتعش لكثرتها وشساعتها الجسد ويرتجف لها القلب، وتخشع لعظمتها الجوارح.

وقد يسلم عالم الكيمياء لما يرى من دقة نظام الذرة وتماسكها ولما يرى من توحيد نظام المجرة مع نظام الذرة.

وكذلك الطبيب لما يرى من آيات الله في خلق الإنسان.

وقس على ذلك الزارع في مزرعته والصانع في مصنعه......إلخ.

سيؤمن هؤلاء أن للكون إلهًا حكيمًا وأن للخلق خالقًا عظيمًا!

فهذا إيمان مجمل يحتاج إلى تفصيل، فالذي انتقل من الإلحاد إلى الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر، وليس عنده علم بقضائه وقدره خيره وشره، كذلك هو في غفلة عن أمره ونهيه، وفي غمرة عن رضاه وسخطه.

إن التبحر في مسائل الإيمان أصولاً وشعبًا مقصد عظيم من مقاصد خلق الإنسان، فإذا ما وُفق الإنسان لهذا المقصد فقد دخل السعادة من أوسع أبوابها. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2].

ومن أرقى أنواع العبادة معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته ومعرفة أمره ونهيه. (هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي

---

(١) «طريق السعادة» ص١١٣.

(٢) الذاريات: ٥٦.

عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عمن سواه، وذلك يتضمن معرفته تعالى، فإن تمام العبادة متوقف على المعرفة بالله؛ بل كلما ازداد العبد معرفة لربه كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله)(١).

أصول الإيمان في القرآن:

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾(٤).

فهذه هي أصول الإيمان التي يدخل تحتها كل ما يلزم أن نؤمن به ونصدق، فقد دخل تحت الإيمان بالله الإيمان بوجوده وتوحيده في ربوبيته وإلوهيته وأسمائه وصفاته ومعرفة أمره ونهيه وعدله وحكمته، ودخل تحت اليوم الآخر المعرفة بما

(١) «تيسير الكريم الرحمن» ص٨١٣.
(٢) البقرة: ١٧٧.
(٣) البقرة: ٢٨٥.
(٤) النساء: ١٣٦.

يلزم من أحكام الثواب والعقاب والـمعاد، ودخل تحت الـملائكة ما يتصل بأدائهم الرسالة إلى النبي ﷺ ليؤديها إلينا، إلى غير ذلك مما يجب أن يعلم من أحوال الـملائكة، ودخل تحت الكتب القرآن وجميع ما أنزل الله على أنبيائه، ودخل تحت النبيين الإيمان بنبوتهم، وصحة شرائعهم، فثبت أنه لـم يبق شيء مما يجب الإيمان به إلا دخل تحت هذه الآية.

ويقرر الفخر الرازي – رحمه الله- في حكمة هذه الأصول الخمسة فيقول: (أنَّ للـمكلف مبدأ ووسطًا ونهاية، ومعرفة الـمبدأ والـمنتهى هو الـمقصود بالإيمان بالله واليوم الآخر، وأما معرفة مصالح الوسط فلا تتم إلا بالرسالة وهي لا تتم إلا بأمور ثلاثة: للـملائكة الآتين بالوحي، ونفس ذلك للوحي وهو الكتاب، والـموحي إليه وهو الرسول ﷺ)(١).

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾(٢).

يقول صاحب «الظلال» – رحمه الله-: «إن الإيمان بالله هو نقطة التحول في حياة البشرية من العبودية لشتى القوى، وشتى الأشياء، وشتى الاعتبارات.. إلى عبودية واحدة لله تتحرر بها النفس من كل عبودية، وترتفع بها إلى مقام الـمساواة مع سائر النفوس في الصف الواحد أمام الـمعبود الواحد؛ ثم ترتفع بها فوق كل شيء وكل اعتبار.. وهي نقطة التحول كذلك من الفوضى إلى النظام، ومن التيه إلى القصد،

---

(١) «مفاتح الغيب» ٣/ ١٥.
(٢) البقرة: ١٧٧.

ومن التفكك إلى وحدة الاتجاه. فهذه البشرية دون إيمان بالله الواحد، لا تعـرف لهـا قصداً مستقيماً ولا غاية مطردة، ولا تعرف لها نقطة ارتكاز تتجمع حولها في جد وفي مسـاواة، كـما يتجمـع الوجـود كلـه، واضـح النسـب والارتباطـات والأهـداف والعلاقات.. والإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بالعدالة الإلهية الـمطلقة في الجـزاء؛ وبأن حياة الإنسان على هذه الأرض ليست سدى ولا فوضى بغير ميزان. وبأن الخير لا يعدم جزاءه ولو بدا أنه في هـذه الأرض لا يلقـى الجـزاء.. والإيـمان بالـملائكة طرف من الإيـمان بالغيـب الـذي هـو مفـرق الطريـق بـين إدراك الإنسـان وإدراك الحيوان، وتصور الإنسان لهذا الوجود وتصور الحيـوان. الإنسـان الـذي يـؤمن بـما وراء الحس والحيوان الـمقيد بحسـه لا يتعـداه.. والإيـمان بالكتـاب والنبيـين هـو الإيمان بالرسالات جميعاً وبالرسل أجمعين، وهو الإيـمان بوحـدة البشريـة، ووحـدة إلهها، ووحدة دينها، ووحدة منهجها الإلهي.. ولهذا الشعور قيمة في شعور الـمؤمن الوارث لتراث الرسل والرسالات.

وما قيمة إيتـاء الـمال - عـلى حبـه والاعتـزاز بـه - لـذوي القربـى واليتـامى والـمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب؟

إن قيمته هي الانعتاق من ربقـة الحـرص والشـح والضـعف والأثـرة. انعتـاق الروح من حب الـمال الذي يقبض الأيـدي عـن الإنفـاق، ويقـبض النفـوس عـن الأريحية، ويقبض الأرواح عن الانطلاق. فهي قيمة روحية يشير إليها ذلـك الـنص على حب الـمال. وقيمة شعورية أن يبسط الإنسان يده وروحه فيما يحب من مـال لا في الرخيص منه ولا الخبيث. فيتحرر من عبودية الـمال، هذه العبودية التـي تسـتذل النفوس، وتنكس الرؤوس. ويتحرر من الحرص. والحرص يـذل أعنـاق الرجـال. وهي قيمة إنسانية كبرى في حساب الإسلام، الذي يحاول دائماً تحريـر الإنسـان مـن وساوس نفسه وحرصها وضعفها قبل أن يحاول تحريره من الخارج في محيط الجماعـة وارتباطاتها، يقيناً منه بأن عبيد أنفسهم هم عبيد النـاس؛ وأن أحـرار النفـوس مـن الشهوات هم أحرار الرؤوس في الـمجتمعات! ثم إنها بعد ذلك كله قيمـة إنسـانية

في محيط الجماعة.. هذه الصلة لذوي القربى فيها تحقيق لمروءة النفس، وكرامة الأسرة، ووشائج القربى. والأسرة هي النواة الأولى للجماعة. ومن ثم هذه العناية بها وهذا التقديم.. وهي لليتامى تكافل بين الكبار والصغار في الجماعة، وبين الأقوياء فيها والضعفاء؛ وتعويض لهؤلاء الصغار عن فقدان الحماية والرعاية الأبويتين؛ وحماية للأمة من تشرد صغارها، وتعرضهم للفساد، وللنقمة على المجتمع الذي لم يقدم لهم براً ولا رعاية.

وهي للمساكين الذين لا يجدون ما ينفقون - وهم مع ذلك ساكنون لا يسألون ضناً بماء وجوههم - احتفاظ لهم بكرامة نفوسهم، وصيانة لهم من البوار، وإشعار لهم بالتضامن والتكافل في محيط الجماعة المسلمة، التي لا يهمل فيها فرد، ولا يضيع فيها عضو.. وهي لابن السبيل - المنقطع عن ماله وأهله - واجب للنجدة في ساعة العسرة، وانقطاع الطريق دون الأهل والمال والديار؛ وإشعار له بأن الإنسانية كلها أهل، وبأن الأرض كلها وطن، يلقى فيها أهلاً بأهل، ومالاً بمال، وصلة بصلة، وقراراً بقرار.. وهي للسائلين إسعاف لعوزهم، وكف لهم عن المسألة التي يكرهها الإسلام. وفي الإسلام لا يسأل من يجد الكفاية أو من يجد عملاً، فهو مأمور من دينه أن يعمل ولا يسأل، وأن يقنع ولا يسأل. فلا سائل إلا حيث يعييه العمل والمال.. وهي في الرقاب إعتاق وتحرير لمن أوقعه سوء عمله في الرق بحمل السيف في وجه الإسلام - حتى يسترد حريته وإنسانيته الكريمة. ويتحقق هذا النص إما بشراء الرقيق وعتقه، وإما بإعطائه ما يؤدي به ما كاتب عليه سيده في نظير عتقه. والإسلام يعلن حرية الرقيق في اللحظة التي يطلب فيها الحرية، ويطلب مكاتبته عليها - أي أداء مبلغ من المال في سبيلها، ومنذ هذه اللحظة يصبح عمله بأجر يحسب له، ويصبح مستحقاً في مصارف الزكاة، ويصبح من البر كذلك إعطاؤه من النفقات غير الزكاة.. كل أولئك ليسارع في فك رقبته، واسترداد حريته.. وإقامة الصلاة؟ ما قيمتها في مجال البر الذي هو جماع الخير؟

إن إقامة الصلاة شيء غير التولي قبل المشرق والمغرب. إنها توجه الإنسان

بكليته إلى ربه، ظاهراً وباطناً جسماً وعقلاً وروحاً. إنها ليست مجرد حركات رياضية بالجسم. وليست مجرد توجه صوفي بالروح. فالصلاة الإسلامية تلخص فكرة الإسلام الأساسية عن الحياة. إن الإسلام يعترف بالإنسان جسماً وعقلاً وروحاً في كيان؛ ولا يفترض أن هناك تعارضاً بين نشاط هذه القوى المكونة في مجموعها للإنسان، ولا يحاول أن يكبت الجسم لتنطلق الروح، لأن هذا الكبت ليس ضرورياً لانطلاق الروح. ومن ثم يجعل عبادته الكبرى.. الصلاة. مظهراً لنشاط قواه الثلاث وتوجهها إلى خالقها جميعاً في ترابط واتساق. يجعلها قياماً وركوعاً وسجوداً تحقيقاً لحركة الجسد، ويجعلها قراءة وتدبراً وتفكيراً في المعنى والمبنى تحقيقا لنشاط العقل؛ ويجعلها توجها واستسلاماً لله تحقيقا لنشاط الروح.. كلها في آن.. وإقامة الصلاة على هذا النحو تذكر بفكرة الإسلام كلها عن الحياة، وتحقق فكرة الإسلام كلها عن الحياة.. في كل ركعة وفي كل صلاة.

وإيتاء الزكاة؟.. إنه الوفاء بضريبة الإسلام الاجتماعية التي جعلها الله حقاً في أموال الأغنياء للفقراء، بحكم أنه هو صاحب المال، وهو الذي ملكه للفرد بعقد منه، من شروطه إيتاء الزكاة. وهي مذكورة هنا بعد الحديث عن إيتاء المال - على حبه - لمن ذكرتهم الآية من قبل على الإطلاق؛ مما يشير إلى أن الإنفاق في تلك الوجوه ليس بديلا من الزكاة، وليست الزكاة بديلة منه.. وإنما الزكاة ضريبة مفروضة، والإنفاق تطوع طليق.. والبر لا يتم إلا بهذه وتلك. وكلتاهما من مقومات الإسلام. وما كان القرآن ليذكر الزكاة منفردة بعد الإنفاق إلا وهي فريضة خاصة لا يسقطها الإنفاق، ولا تغني هي عن الإنفاق. والوفاء بالعهد؟ إنه سمة الإسلام التي يحرص عليها، ويكررها القرآن كثيراً؛ ويعدها آية الإيمان، وآية الآدمية وآية الإحسان. وهي ضرورية لإيجاد جو من الثقة والطمأنينة في علاقات الأفراد وعلاقات الجماعات وعلاقات الأمم والدول. تقوم ابتداء على الوفاء بالعهد مع الله. وبغير هذه السمة يعيش كل فرد مفزعاً قلقاً لا يركن إلى وعد، ولا يطمئن إلى عهد، ولا يثق بإنسان، ولقد بلغ الإسلام من الوفاء بالعهد لأصدقائه وخصومه على

السواء قمة لم تصعد إليها البشرية في تاريخها كله، ولم تصل إليها إلا على حداء الإسلام وهدي الإسلام. والصبر في البأساء والضراء وحين البأس؟.. إنها تربية للنفوس وإعداد، كي لا تطير شعاعاً مع كل نازلة، ولا تذهب حسرة مع كل فاجعة، ولا تنهار جزعاً أمام الشدة. إنه التجمل والتماسك والثبات حتى تنقشع الغاشية وترحل النازلة ويجعل الله بعد عسر يسراً. إنه الرجاء في الله والثقة بالله والاعتماد على الله. ولا بد لأمة تناط بها القوامة على البشرية، والعدل في الأرض والصلاح، أن تهيأ لمشاق الطريق ووعثائه بالصبر في البأساء والضراء وحين الشدة. الصبر في البؤس والفقر. والصبر في المرض والضعف. والصبر في القلة والنقص. والصبر في الجهاد والحصار، والصبر على كل حال. كي تنهض بواجبها الضخم، وتؤدي دورها المرسوم، في ثبات وفي ثقة وفي طمأنينة وفي اعتدال. ويبرز السياق هذه الصفة.. صفة الصبر في البأساء والضراء وحين البأس.. يبرزها بإعطاء كلمة ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وصفاً في العبارة يدل على الاختصاص. فما قبلها من الصفات مرفوع أما هي فمنصوبة على الاختصاص بتقدير: «وأخص الصابرين».. وهي لفتة خاصة لها وزنها في معرض صفات البر.. لفتة خاصة تبرز الصابرين وتميزهم، وتخصص هذه السمة من بين سمات الإيمان بالله والملائكة والكتاب والنبيين وإيتاء المال - على حبه- وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهد.. وهو مقام للصابرين عظيم، وتقدير لصفة الصبر في ميزان الله، يلفت الأنظار.. وهكذا تجمع آية واحدة بين أصول الاعتقاد، وتكاليف النفس والمال، وتجعلها كلاً لا يتجزأ، ووحدة لا تنفصم. وتضع على هذا كله عنواناً واحداً هو «البر» أو هو «جماع الخير» أو هو «الإيمان» كما ورد في بعض الأثر. والحق أنها خلاصة كاملة للتصور الإسلامي ولمبادئ المنهج الإسلامي المتكامل لا يستقيم بدونها إسلام.

ومن ثم تعقب الآية على من هذه صفاتهم بأنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾.

أولئك الذين صدقوا ربهم في إسلامهم. صدقوا في إيمانهم واعتقادهم، وصدقوا في ترجمة هذا الإيمان والاعتقاد إلى مدلولاته الواقعة في الحياة.

وأولئك هم المتقون الذين يخشون ربهم ويتصلون به، ويؤدون واجبهم له في حساسية وفي إشفاق..

وننظر نحن من خلال هذه الآية إلى تلك الآفاق العالية التي يريد الله أن يرفع الناس إليها، بمنهجه الرفيع القويم.. ثم ننظر إلى الناس وهم ينأون عن هذا المنهج ويتجنبونه، ويحاربونه، ويرصدون له العداوة، ولكل من يدعوهم إليه.. ونقلب أيادينا في أسف، ونقول ما قال الله سبحانه: يا حسرة على العباد!

ثم ننظر نظرة أخرى فتنجلي هذه الحسرة، على أمل في الله وثيق، وعلى يقين في قوة هذا المنهج لا يتزعزع، ونستشرف المستقبل فإذا على الأفق أمل. أمل وضيء منير. أن لا بد لهذه البشرية من أن تفيء - بعد العناء الطويل - إلى هذا المنهج الرفيع. وأن تتطلع إلى هذا الأفق الوضيء.. والله المستعان(١).

أصول الإيمان في السنة:

السنة مفصلة لما أُجمل في القرآن، فما أُجمل فيه من مسائل الإيمان جاء في السنة مفصلاً، وما أُبهم جاء في السنة مبيناً، وقد أشفق الصحابة - رضوان الله عليهم - لما نزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(٢).

فقالوا يا رسول الله ﷺ أيُّنا لم يَلْبِسْ إيمانَهُ بِظُلم فنزلت: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٣) فبين لهم أن المقصود بالظلم في الآية إنما هو الشرك.

بل قد جاءهم جبريل عليه السلام في صورة رجل ليعلمهم أعظم مسائل الدين على

(١) «الظلال» ص١٥٩ - ١٦٢.
(٢) الأنعام: ٨٢.
(٣) رواه البخاري (٣٤٢٨) كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾.

الإطلاق فسأل النبي ﷺ عن الإيمان، الإسلام، الإحسان في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم، ففي رواية مسلم عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِحْسَانِ، قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعَةِ، قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»(١).

وفي رواية الترمذي: سأل عن الإيمان، ثم الإسلام، ثم الإحسان وهو ترتيب له وجه من جهة أن الإيمان عقيدة في الباطن، وأما الإسلام فأعمال الجوارح الظاهرة من القول والعمل، والإحسان يشمل إتقان الظاهر والباطن فالإحسان أقسام، إحسان مع الله وهو الذي جاء في الحديث «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» وإحسان مع الخلق أن تقضي حوائجهم وتيسر على معسرهم وتتصدق على فقيرهم ومسكينهم، وإحسان مع النفس أن تأخذها بالآداب الجميلة وتهذبها بالأخلاق الكريمة، وقد وصف الله المحسنين بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ

(١) رواه مسلم (٨) كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان.

أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[١].

وحديث جبريل عليه السلام هذا من أجمع الأحاديث في أصول الدين قال عنه ابن رجب الحنبلي – رحمه الله-: «جميع العلوم ترجع إلى هذا الحديث وتدخل تحته، وجميع العلماء من فرق هذه الأمة لا تخرج علومهم التي يتكلمون فيها عن هذا الحديث وما دل عليه مجملاً ومفصلاً، فإن الفقهاء إنما يتكلمون في العبادات التي هي من جملة خصال الإسلام ويضيفون إلى ذلك الكلام في أحكام الأموال والإبضاع والدماء، وكل ذلك من علم الإسلام كما سبق التنبيه عليه، ويبقى كثير من علم الإسلام من الآداب والأخلاق وغير ذلك لا يتكلم عليه إلا القليل منهم، ولا يتكلمون عن معنى الشهادتين وهما أصل الإسلام كله، والذين يتكلمون عن أصول الديانات يتكلمون عن الشهادتين وعن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر، والذين يتكلمون عن علم المعارف والمعاملات يتكلمون على مقام الإحسان وعلى الأعمال الباطلة التي تدخل في الإيمان أيضًا كالخشية والمحبة والتوكل والرضا والصبر ونحو ذلك... فانحصرت العلوم الشرعية التي يتكلم عليها علماء المسلمين في هذا الحديث ورجعت كلها إليه»[٢].

فهذا الحديث الجليل القدر يمثل الدين كله، فالإيمان يمثل العقيدة، والإسلام هو الشريعة العملية، أما الإحسان فيشمل الجانب الأخلاقي فضلاً عن إتقان العلم والعمل، بل ويشمل كل منازل ا لإيمان ومدارج الدين العظيم والذي نحن بصدد الحديث عنه هنا إنما هو العقيدة، فحديثنا في هذه الرسالة حول تعريف الإيمان، أو أركان الإيمان الستة المذكورة في الحديث، نخص منها الركن الأول بسلسلة «جدد توحيدك» أم بقية الأركان الستة فنسلكها في سلسلة «جدد عقيدتك» فالله المستعان وعيه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) الذاريات: ١٦-١٩.

(٢) «جامع العلوم والحكم» ص٤٨.

«الإيمان بالله»:

شقى كل الشقاء من كانت حياته مقطوعة الصلة بالله، وتعس كل التعاسة من أفنى عمره بعيدًا عن الله، وخسر كل الخسران من لم يتفانى في رضا مولاه، ولكن سجل حياة البشر على هذه الأرض يحمل في طياته مآسٍ جمة ومواجع أليمة قديمًا وحديثًا، ولا تزال متتابعة تترا إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولاً، أسفرت في زماننا عن أن عدد المسلمين لم يبلغ خمس سكان الأرض ﴿**ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ**﴾(١).

وأعجب ما في الأمر أن قضية (**الإيمان بالله**) لا تحتاج إلى كثرة استدلال، ولا إلى تزيين مقال والأمر كما قال الشاعر:

وليس يصح في الأذهان شيء   إذا احتاج النهار إلى دليل

وقال آخر:

قالوا ائتنا ببرهان فقلت لهم   أنى يقوم على البرهان برهان

فالأمر الطبيعي أن يكون التحدي موجهًا إلى أهل الكفر والإلحاد والعناد أن يبرهنوا على أن ليس للكون إله قال تعالى: ﴿**أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ**﴾(٢).

هذا هو العدل والميزان ولكن الله سبحانه وتعالى برحمته يعاملنا بالفضل والإحسان فصرّف لنا الآيات ونوّع لنا البراهين وضرب لنا من كل مثل في كتابه الكريم على أنه لا إله غيره ولا رب سواه وأنه ذو الجلال والجمال والكمال.

فلا نحتاج بعد ذلك إلى ما سماه الفلاسفة وأهل الكلام بقانون العلة وقانون

---

(١) المؤمنون: ٤٤.

(٢) النمل: ٦٤.

الوجوب والحدوث والنظام، وأي برهان عقلي يماثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾(١).

يقول صاحب «الظلال» – رحمه الله-: «والاستفهام التالي عن حقيقة وجودهم، هم أنفسهم، وهي حقيقة قائمة لا مفر لهم من مواجهتها، ولا سبيل لهم إلى تفسيرها بغير ما يقوله القرآن فيها، من أن لهم خالقاً أوجدهم هو الله سبحانه. وهو موجود بذاته. وهم مخلوقون. ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ؟ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ؟﴾.. ووجودهم هكذا من غير شيء أمر ينكره منطق الفطرة ابتداء؛ ولا يحتاج إلى جدل كثير أو قليل. أما أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم فأمر لم يدّعوه ولا يدّعيه مخلوق. وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة، فإنه لا يبقى إلا الحقيقة التي يقولها القرآن. وهي أنهم جميعاً من خلق الله الواحد الذي لا يشاركه أحد في الخلق والإنشاء؛ فلا يجوز أن يشاركه أحد في الربوبية والعبادة.. وهو منطق واضح بسيط. كذلك يواجههم بوجود السماوات والأرض حيالهم. فهل هم خلقوها؟ فإنها لم تخلق نفسها بطبيعة الحال كما أنهم لم يخلقوا أنفسهم: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ؟ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾.. وهم – ولا أي عقل يحتكم إلى منطق الفطرة – لا يقولون: إن السماوات والأرض خلقت نفسها، أو خلقت من غير خالق.

وهم كذلك لا يدّعون أنهم خلقوها.. وهي قائمة حيالهم سؤالاً حياً يتطلب جواباً على وجوده! وقد كانوا إذا سئلوا عمن خلق السماوات والأرض قالوا الله.. ولكن هذه الحقيقة لم تكن تتضح في إدراكهم إلى درجة اليقين الذي ينشىء آثاره في القلب، ويحركه إلى اعتقاد واضح دقيق.. ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾..

---

(١) الطور: ٣٥– ٣٨.

ثم يهبط بهم درجة عن درجة الخلق والإبداع لأنفسهم أو للسماوات والأرض. فيسألهم: هل هم يملكون خزائن الله، ويسيطرون على القبض والبسط، والضر والنفع: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ؟ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ؟﴾.

وإذا لم يكونوا كذلك، ولم يدعوا هذه الدعوى. فمن ذا يملك الخزائن، ومن ذا يسيطر على مقاليد الأمور؟ القرآن يقول: إنه الله القابض الباسط، المدبر المتصرف. وهذا هو التفسير الوحيد لما يجري في الكون من قبض وبسط وتصريف وتدبير. بعد انتفاء أن يكونوا هم المالكين للخزائن المسيطرين على تصريف الأمور!

ثم يهبط بهم درجة أخرى فيسألهم إن كانت لهم وسيلة للاستماع إلى مصدر التنزيل: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ؟ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

إن محمداً ﷺ يقول لهم: إنه رسول يوحى إليه، وإن هذا القرآن يتنزل عليه من الملأ الأعلى. وهم يكذبونه فيما يقول. فهل لهم سلم يستمعون فيه، فيعلموا أن محمداً لا يوحى إليه، وأن الحق غير ما يقول؟: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾. أي ببرهان قوي يحمل في ذاته سلطاناً على النفوس يلجئها إلى التصديق. وفي هذا التلميح إلى سلطان القرآن الذي يطالعهم في آياته وحججه، وهم يكابرون فيها ويعاندون![1]

إن ربوبية الله ﷻ وإلوهيته واضحة وضوح الشمس لكل ذي لب، وظاهرة ظهور النهار إذا أسفر لمن كان له قلب، ولكنها الحكمة البالغة قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْآيَٰتُ

---

(١) «الظلال» ٦/ ٣٤٠٠.

وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾[٢].

ولقد أتحف الله عباده المؤمنين بمناظرات عدة سجلها في أعظم سجل في تاريخ البشر على الإطلاق وجعلها باقية حتى يأتي أمر الله مناظرات في ربوبية الله وإلوهيته منها مناظرات الخليل إبراهيم عليه السلام وكليم الرحمن موسى بن عمران عليه السلام؛ لتكون مثلاً لأهل الإيمان وعبرة لأهل الكفر والطغيان، فلأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام مناظرات عدة سجلها القرآن الكريم تارة مع أبيه وتارة مع قومه وأخرى مع طاغية عصره وأحيانًا تكون المناظرة بين إبراهيم عليه السلام وبين أبيه وقومه معًا.

***

(١) يونس: ٩٩- ١٠١.

(٢) هود: ١١٨ – ١١٩.

(٣)

(مناظرات خليل الرحمن)

وأبدأ بمناظرته مع الصنم البشري وطاغية عصره (النمروذ) وهذه المناظرة يغلب عليها جانب «الربوبية» بمعنى أن الله سبحانه وحده رب كل شيء ومليكه، لا شريك له في الخلق والملك والتدبير، فلا خالق إلا الله ولا مالك للكون كله سواه، ولا يشرك أحدًا في تدبير مملكته سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾[1].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[2].

آية واحدة تحكي لنا أحداث وملابسات المناظرة التي انتهت بعد لحظات قليلة بالضربة القاضية وجهها أبو الأنبياء عليه السلام في صدر الإلحاد والجاهلية.

وقد بدأ خليل الرحمن عليه السلام مناظرته بأخص خصائص الربوبية وهي قضية (الإحياء والإماتة) سران من أسرار الله عز وجل ولن يطمع الإنسان القديم، والحديث أن يطلع على القليل من أسرار (الموت والحياة).

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3].

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ

---

(١) الكهف: ٢٦.

(٢) البقرة: ٢٥٨.

(٣) الإسراء: ٨٥.

أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[٣].

ولكن الطاغية شأنه شأن كل طواغيت الأرض قديمًا وحديثًا يعبثون بأرواح البشر فادعى كثيف الطبع وبليد العقل أنه يحي ويميت، فلما علم منه إبراهيم عليه السلام مكابرته لم يجادله في آية الموت والحياة إنما أحاله إلى آية أخرى من آيات الله آية مرئية حسية، ظاهرة وليست خفية ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الآية.

يقول صاحب «الظلال» – رحمه الله– عند تفسير هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ؟﴾ إنه تعبير التشنيع والتفظيع؛ وإن الإنكار والاستنكار لينطلقان من بنائه اللفظي وبنائه المعنوي سواء. فالفعلة منكرة حقًا: أن يأتي الحجاج والجدال بسبب النعمة والعطاء! وأن يدعي عبد لنفسه ما هو من اختصاص الرب، وأن يستقل حاكم بحكم الناس بهواه دون أن يستمد قانونه من الله.

---

(١) الواقعة: ٨٣– ٨٧.

(٢) الواقعة: ٥٨– ٦٢.

(٣) الحج: ٧٣– ٧٤.

﴿قَالَ إِبْرَاهِـۧمُ: رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.. والإحياء والإماتة هما الظاهرتان المكررتان في كل لحظة، المعروضتان لحس الإنسان وعقله. وهما – في الوقت نفسه – السر الذي يحير، والذي يلجئ الإدراك البشري لجاء إلى مصدر آخر غير بشري. وإلى أمر آخر غير أمر المخاليق. ولا بد من الالتجاء إلى الألوهية القادرة على الإنشاء والإفناء لحل هذا اللغز الذي يعجز عنه كل الأحياء. إننا لا نعرف شيئًا عن حقيقة الحياة وحقيقة الموت حتى اللحظة الحاضرة. ولكننا ندرك مظاهرهما في الأحياء والأموات. ونحن ملزمون أن نكل مصدر الحياة والموت إلى قوة ليست من جنس القوى التي نعرفها على الإطلاق.. قوة الله..

ومن ثم عرّف إبراهيم عليه السلام ربه بالصفة التي لا يمكن أن يشاركه فيها أحد، ولا يمكن أن يزعمها أحد، وقال وهذا الملك يسأله عمن يدين له بالربوبية ويراه مصدر الحكم والتشريع غيره.. قال: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ فهو من ثم الذي يحكم ويشرع.

وما كان إبراهيم عليه السلام وهو رسول موهوب تلك الموهبة اللدنية التي أشرنا إليها في مطلع هذا الجزء – ليعني من الأحياء والإماتة إلا إنشاء هاتين الحقيقتين إنشاء. فذلك عمل الرب المتفرد الذي لا يشاركه فيه أحد من خلقه. ولكن الذي حاج إبراهيم في ربه رأى في كونه حاكماً لقومه وقادراً على إنفاذ أمره فيهم بالحياة والموت مظهراً من مظاهر الربوبية. فقال لإبراهيم: أنا سيد هؤلاء القوم وأنا المتصرف في شأنهم، فأنا إذن الرب الذي يجب عليك أن تخضع له، وتسلم بحاكميته: ﴿قَالَ: أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾! عند ذلك لم يرد إبراهيم – عليه السلام – أن يسترسل في جدل حول معنى الإحياء والإماتة مع رجل يماري ويداور في تلك الحقيقة الهائلة. حقيقة منح الحياة وسلبها. هذا السر الذي لم تدرك منه البشرية حتى اليوم شيئاً.. وعندئذ عدل عن هذه السنة الكونية الخفية، إلى سنة أخرى ظاهرة مرئية؛ وعدل عن طريقة العرض المجرد للسنة الكونية والصفة الإلهية في قوله:

﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾.. إلى طريقة التحدي، وطلب تغيير سنة الله لمن ينكر ويتعنت ويجادل في الله؛ ليريه أن الرب ليس حاكم قوم في ركن من الأرض، إنما هو مصرف هذا الكون كله. ومن ربوبيته هذه للكون يتعين أن يكون هو رب الناس المشرع لهم: ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ: فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾.. وهي حقيقة كونية مكررة كذلك؛ تطالع الأنظار والمدارك كل يوم؛ ولا تتخلف مرة ولا تتأخر. وهي شاهد يخاطب الفطرة - حتى ولو لم يعرف الإنسان شيئاً عن تركيب هذا الكون، ولم يتعلم شيئاً من حقائق الفلك ونظرياته - والرسالات تخاطب فطرة الكائن البشري في أية مرحلة من مراحل نموه العقلي والثقافي والاجتماعي، لتأخذ بيده من الموضع الذي هو فيه. ومن ثم كان هذا التحدي الذي يخاطب الفطرة كما يتحدث بلسان الواقع الذي لا يقبل الجدل: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾.. فالتحدي قائم، والأمر ظاهر، ولا سبيل إلى سوء الفهم، أو الجدال والمراء.. وكان التسليم أولى والإيمان أجدر. ولكن الكبر عن الرجوع إلى الحق يمسك بالذي كفر، فيبهت ويبلس ويتحير. ولا يهديه الله إلى الحق لأنه لم يتلمس الهداية، ولم يرغب في الحق؛ ولم يلتزم القصد والعدل: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.. ويمضي هذا الجدل الذي عرضه الله على نبيه ﷺ وعلى الجماعة المسلمة. مثلاً للضلال والعناد؛ وتجربة يتزود بها أصحاب الدعوة الجدد في مواجهة المنكرين؛ وفي ترويض النفوس على تعنت المنكرين!

كذلك يمضي بتقرير تلك الحقائق التي تؤلف قاعدة التصور الإيماني الناصع: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ!﴾.. حقيقة في الأنفس وحقيقة في الآفاق. حقيقتان كونيتان هائلتان؛ وهما - مع ذلك - مكررتان معروضتان للبصائر والأبصار آناء الليل وأطراف النهار. لا تحتاجان إلى علم غزير، ولا إلى تفكير طويل. فالله أرحم بعباده أن يكلهم في مسألة الإيمان به والاهتداء إليه، إلى العلم الذي قد يتأخر وقد يتعثر، وإلى

التفكير الذي قد لا يتهيأ للبدائيين. إنما يكلهم في هذا الأمر الحيوي الذي لا تستغني عنه فطرتهم، ولا تستقيم بدونه حياتهم، ولا ينتظم مع فقدانه مجتمعهم.. ولا يعرف الناس بدونه من أين يتلقون شريعتهم وقيمهم وآدابهم.. يكلهم في هذا الأمر إلى مجرد التقاء الفطرة بالحقائق الكونية المعروضة على الجميع، والتي تفرض نفسها فرضاً على الفطرة، فلا يجد الإنسان عن إيحائها الملجأ إلا بعسر ومشقة ومحاولة ومحال وتعنت وعناد!

والشأن في مسألة الاعتقاد هو الشأن في كل أمر حيوي تتوقف عليه حياة الكائن البشري. فالكائن الحي يبحث عن الطعام والشراب والهواء - كما يبحث عن التناسل والتكاثر - بحثاً فطرياً ولا يترك الأمر في هذه الحيويات حتى يكمل التفكير وينضج، أو حتى ينمو العلم ويغزر. وإلا تعرضت حياة الكائن الحي إلى الدمار والبوار.. والإيمان حيوي للإنسان حيوية الطعام والشراب والهواء سواء بسواء. ومن ثم يكله الله فيه إلى تلاقي الفطرة بآياته المبثوثة في صفحات الكون كله في الأنفس والآفاق[1].

أما مناظرته مع أبيه فجائت جلية في سورة مريم والتي جاء في أولها الرد على من اتخذ إلهه بشرًا، ثم عقبت بالرد على من اتخذ إلهه حجرًا والتي هي مناظرة إبراهيم عليه السلام لأبيه قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾[2].

(١) «الظلال» ١/ ٢٩٧- ٢٩٩.

(٢) مريم: ٤١- ٤٧.

يقول الفخر الرازي – رحمه الله-: «واعلـم أن إبراهيم ﷺ رتب هذا الكلام في غاية الحسن؛ لأنه نبه أولاً على ما يدل على الـمنع من عبادة الأوثان، ثم أمره باتباعه في النظر والاستدلال وترك التقليد.

ثم إنه ﷺ أورد هذا الكلام الحسن مقرونًا باللطف والرفق، فإن في قوله في مقدمة كل كلام ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ دليل على شدة الحب والرغبة في صونه عن العقاب وإرشاده إلى الصواب.

فقابله أبوه بجواب يضاد ذلك، فقابل حجته بالتقليد، فإنه لـم يذكر في مقابلة حجته إلا قوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ فأصر على إدعاء إلهيتها جهلاً وتقليدًا، وقابل وعظه بالسفاهة حيث هدده بالضرب والشتم وقابل رفقه في قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ بالعنف حيث لـم يقل له يا بني بل قال: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾»(١).

أما مناظرته لأبيه وقومه معًا فذكرت في أكثر من موضع في القرآن الكريم منها في سورة الأنعام والصافات والأنبياء والشعراء، ويغلب عليها إثبات الألوهية وتجريد العبودية.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ
لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا
عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا
بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى
فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن
تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾
قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ
يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟

---
(١) «التفسير الكبير» ١٠/ ٤٧١ بتصرف.

ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾[1].

ومقصد العلماء من (توحيد الألوهية) توحيد العبادة والقصد والإرادة فلا يصرف العبد عبادته إلا لله، ولا يقصد إلا رضاه، ولا يريد إلا إياه فلا واسطة بين العبد وربه، ولا ندّ له ولا شريك، ولا صاحبة ولا ولد ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾[2].

وهذا التوحيد هو باب السعادة الكبير الذي إن لم يفتح للعبد فلم يذق طعم السعادة في الدنيا ولا يشم رائحة الجنة في الآخرة وإن كان (توحيد الربوبية) هو العلمي الخبري، فإن توحيد الألوهية هو التوحيد العملي الطلبي وسيأتي الحديث بشيء من التفصيل بعد ذلك.

أما الجانب الآخر الذي تحمله هذه المناظرات في طياتها فهو يتعلق بتنزيه الله عن كل نقص وتقديسه عن كل عيب، والذي يعرف عند العلماء «توحيد الأسماء والصفات» بمعنى أن الله ﷻ لا شبيه له ولا نظير، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[3].

قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾

---

(١) الإخلاص.
(٢) الأنبياء: ٥١- ٧٠.
(٣) الشورى: ١١.

قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1].

وقد تضمنت هذه المناظرة من صفات الله عز وجل [الإحياء- الإماتة- الرزق – الإطعام- الشفاء- الهداية- السمع- المغفرة...].

وتنفرد هذه المناظرة عن سابقاتها بحرارة التضرع، ولذة المناجاة، وعظم الدعاء، وحسن عبادة الله بأسمائه وصفاته، فإن كان توحيد الألوهية باب السعادة الكبير، فإن توحيد الأسماء والصفات المملكة العظمى التي من دخلها لا يشقى بعدها أبدًا. فنسأل الله ﷻ أن يعلمنا كيف نتعبده بأسمائه الحسنى وصفاته العلى إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

ونستشعر من وصف إبراهيم عليه السلام لربه، واسترساله في تصوير صلته به، أنه يعيش بكيانه كله مع ربه. وأنه يتطلع إليه في ثقة، ويتوجه إليه في حب؛ وأنه يصفه كأنه يراه، ويحس وقع إنعامه وإفضاله عليه بقلبه ومشاعره وجوارحه.. والنغمة الرّخية في حكاية قوله في القرآن تساعد على إشاعة هذا الجو وإلقاء هذا الظل، بالإيقاع العذب الرخي اللين المديد..

---

(١) الشعراء: ٦٩-٨٩.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾.. الذي أنشأني من حيث يعلم ولا أعلم؛ فهو أعلم بماهيتي وتكويني، ووظائفي ومشاعري، وحالي ومآلي: ﴿فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ إليه، وإلى طريقي الذي أسلكه، وإلى نهجي الذي أسير عليه. وكأنما يحس إبراهيم عليه السلام أنه عجينة طيعة في يد الصانع المبدع، يصوغها كيف شاء، على أي صورة أراد. إنه الاستسلام المطلق في طمأنينة وراحة وثقة ويقين.

﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾.. فهي الكفالة المباشرة الحانية الراعية، الرفيقة الودود، يحس بها إبراهيم في الصحة والمرض. ويتأدب بأدب النبوة الرفيع، فلا ينسب مرضه إلى ربه وهو يعلم أنه بمشيئة ربه يمرض ويصح إنما يذكر ربه في مقام الإنعام والإفضال إذ يطعمه ويسقيه.. ويشفيه.. ولا يذكره في مقام الابتلاء حين يبتليه.

﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾.. فهو الإيمان بأن الله هو الذي يقضي الموت، وهو الإيمان بالبعث والنشور في استسلام ورضى عميق.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾.. فأقصى ما يطمع فيه إبراهيم عليه السلام النبي الرسول، الذي يعرف ربه هذه المعرفة، ويشعر بربه هذا الشعور، ويحس في قرارة نفسه هذه القربى.. أقصى ما يطمع فيه أن يغفر له ربه خطيئته يوم الدين. فهو لا يبرئ نفسه، وهو يخشى أن تكون له خطيئة، وهو لا يعتمد على عمله، ولا يرى أنه يستحق بعمله شيئاً، إلا أنه يطمع في فضل ربه، ويرجو في رحمته، وهذا وحده هو الذي يطمعه في العفو والمغفرة. إنه شعور التقوى، وشعور الأدب، وشعور التحرج؛ وهو الشعور الصحيح بقيمة نعمة الله وهي عظيمة عظيمة، وقيمة عمل العبد وهو ضئيل ضئيل.

وهكذا يجمع إبراهيم في صفة ربه عناصر العقيدة الصحيحة: توحيد الله رب العالمين. والإقرار بتصريفه للبشر في أدق شؤون حياتهم على الأرض. والبعث والحساب بعد الموت وفضل الله وتقصير العبد. وهي العناصر التي ينكرها قومه،

وينكرها المشركون، ثم يأخذ إبراهيم الأواه المنيب في دعاء رخي مديد، يتوجه به إلى ربه في إيمان وخشوع ﴿رَبِّ هَبۡ لِى حُكۡمًا وَأَلۡحِقۡنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجۡعَل لِّى لِسَانَ صِدۡقٍ فِى ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِى يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٍ سَلِيمٍ﴾.

والدعاء كله ليس فيه طلب لعرض من أعراض هذه الأرض؛ ولا حتى صحة البدن. إنه دعاء يتجه إلى آفاق أعلى؛ تحركه مشاعر أصفى. ودعاء القلب الذي عرف الله فأصبح يحتقر ما عداه. والذي ذاق فهو يطلب المزيد؛ والذي يرجو ويخاف في حدود ما ذاق وما يريد. ﴿رَب هَبۡ لِى حُكۡمًا﴾.. أعطني الحكمة التي أعرف بها القيم الصحيحة والقيم الزائفة، فأبقى على الدرب يصلني بما هو أبقى.

﴿وَأَلۡحِقۡنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.. يقولها إبراهيم النبي الكريم الأواه الحليم. فيا للتواضع! ويا للتحرج! ويا للإشفاق من التقصير! ويا للخوف من تقلب القلوب! ويا للحرص على مجرد اللحاق بالصالحين! بتوفيق من ربه إلى العمل الصالح الذي يلحقه بالصالحين!

﴿وَٱجۡعَل لِّى لِسَانَ صِدۡقٍ فِى ٱلۡأٓخِرِينَ﴾.. دعوة تدفعه إليها الرغبة في الامتداد، لا بالنسب ولكن بالعقيدة؛ فهو يطلب إلى ربه أن يجعل له فيمن يأتون أخيراً لسان صدق يدعوهم إلى الحق، ويردهم إلى الحنيفية السمحاء دين إبراهيم. ولعلها هي دعوته في موضع آخر. إذ يرفع قواعد البيت الحرام هو وابنه إسماعيل ثم يقول: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[1] وقد استجاب الله

---

(١) البقرة:١٢٨-١٢٩.

له، وحقق دعوته، وجعل له لسان صدق في الآخرين، وبعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويعلـمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.. وكانت الاستجابة بعد آلاف من السنين. هي في عرف الناس أمد طويل، وهي عند الله أجل معلوم، تقتضي حكمته أن تتحقق الدعوة الـمستجابة فيه.

﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾.. وقد دعا ربه من قبل أن يلحقه بالصالحين، بتوفيقه إلى العمل الصالح، الذي يسلكه في صفوفهم. وجنة النعيم يرثها عباد الله الصالحون[١].

«ثمرة التوحيد- الولاء والبراء»:

ونقف وقفة تأمل عن قولة إبراهيم عليه السلام ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ نعم أيها القراء الكرام، إن عقيدة التوحيد إذا غزت شغاف القلوب، وتغلغلت في أعماق النفوس، وسيطرت على كيان الإنسان أثمرت ثمرة عجيبة، وميزة فريدة، لا تنفك عن من هو سليم العقيدة، ألا وهي (الولاء والبراء) أي: الولاء والـمحبة لأهل الإيمان وأصحاب عقيدة التوحيد الخالصة أينما كانوا في أرض الله، والبراء والبغضاء والـمعاداة لأهل الكفر – بعد دعوتهم وإقامة الحجة عليهم- أينما كانوا في أرض الله بل لو كانوا الآباء والأبناء والأزواج والأهل والعشيرة.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٢].

فهؤلاء هم أهل الله حقًّا وصدقًا وهم أهل الفلاح والغلبة ألا إن حزب الله هم

---

(١) «الظلال» / ٤ ٢٦٠.

(٢) الـمجادلة: ٢٢.

المفلحون. ألا إن حزب الله هم الغالبون بلى وانظر إلى التحذير المخيف والتهديد الشديد في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(١).

وقد وقع هذا التحذير المخيف والتهديد الشديد وتحقق في مسلمي اليوم، وجاء الله بأمره فاجتمعت ملل الكفر في أرض الله ومالوا على المسلمين ميلة واحدة فقتّل الآباء وشرد الأبناء والأهل والعشيرة، وضرّبت المساكن، وضاعت الأموال وكسدت التجارة فكان الجزاء من جنس العمل. فمن أحب شيئًا وآثره على محبة الله عُذّب به لا محالة ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢).

وقد روى عنه ﷺ من حديث عبد الله بن عمرو - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- أنه قال: «لَئِنْ تَرَكْتُمُ الْجِهَادَ وَأَخَذْتُمْ بِأَذْنَابِ الْبَقَرِ، وَتَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ لَيُلْزِمَنَّكُمُ اللهُ مَذَلَّةً فِي رِقَابِكُمْ لَا تَنْفَكُّ عَنْكُمْ حَتَّى تَتُوبُوا إِلَى اللهِ وَتَرْجِعُوا عَلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ»(٣).

إن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام صاحب الحنيفة السمحاء هو الذي أرسى مبادئ عقيدة الولاء والبراء وبدأ بأقرب الأقربين إليه أبيه وقومه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾(٤).

---

(١) التوبة: ٣٨- ٣٩.

(٢) التوبة: ٣٨- ٣٩.

(٣) رواه أحمد في «مسند» (٤٧٩٥) ١٠/ ٣٠١.

(٤) التوبة: ١١٤.

وهو الأسوة الحسنة لآخر الأنبياء والـمرسلين قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾(١).

وينظر الـمسلـم فإذا له نسب عريق، وماض طويل، وأسوة ممتدة على آماد الزمان، وإذا هو راجع إلى إبراهيم، لا في عقيدته فحسب، بل في تجاربه التي عاناها كذلك. فيشعر أن له رصيداً من التجارب أكبر من رصيده الشخصي وأكبر من رصيد جيله الذي يعيش فيه. إن هذه القافلة الـممتدة في شعاب الزمان من الـمؤمنين بدين الله، الواقفين تحت راية الله، قد مرت بمثل ما يمر به، وقد انتهت في تجربتها إلى قرار اتخذته. فليس الأمر جديداً ولا مبتدعاً ولا تكليفاً يشق على الـمؤمنين.. ثم إن له لأمة طويلة عريضة يلتقي معها في العقيدة ويرجع إليها، إذا انبتت الروابط بينه وبين أعداء عقيدته. فهو فرع من شجرة ضخمة باسقة عميقة الجذور كثيرة الفروع وارفة الظلال.. الشجرة التي غرسها أول الـمسلـمين.. إبراهيم عليه السلام.

مر إبراهيم والذين معه بالتجربة التي يعانيها الـمسلـمون الـمهاجرون. وفيهم أسوة حسنة: ﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ: إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾..

فهي البراءة من القوم ومعبوداتهم وعباداتهم. وهو الكفر بهم والإيمان بالله. وهي العداوة والبغضاء لا تنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده. وهي الـمفاصلة الحاسمة الجازمة التي لا تستبقي شيئاً من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة وآصرة الإيمان. وفي هذا فصل الخطاب في مثل هذه التجربة التي يمر بها

---

(١) الـممتحنة: ٤.

المؤمن في أي جيل. وفي قرار إبراهيم والذين معه أسوة لخلفائهم من المسلمين إلى يوم الدين(١).

دستور الولاء والبراء:

وسورة الممتحنة كلها بمثابة دستور للولاء والبراء، وسبب نزول السورة حادثة حاطب بن أبي بلتعة ﷺ التي رواها البخاري ومسلم... عن علي ﷺ قال: «بَعَثَنِي رَسُولُ اللهَّ ﷺ - وَأَبَا مَرْثَدٍ الْغَنَوِيَّ وَالزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ- وَكُلُّنَا فَارِسٌ قَالَ: **انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا امْرَأَةً مِنْ الْمشْرِكِينَ مَعَهَا كِتَابٌ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى الْمشْرِكِينَ**، فَأَدْرَكْنَاهَا تَسِيرُ عَلَى بَعِيرٍ لَهَا، حَيْثُ قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ فَقُلْنَا الْكِتَابُ فَقَالَتْ: مَا مَعَنَا كِتَابٌ فَأَنَخْنَاهَا فَالْتَمَسْنَا، فَلَم نَرَ كِتَابًا فَقُلْنَا مَا كَذَبَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُجَرِّدَنَّكِ، فَلَما رَأَتْ الْجِدَّ أَهْوَتْ إِلَى حُجْزَتِهَا وَهِيَ مُحْتَجِزَةٌ بِكِسَاءٍ، فَأَخْرَجَتْهُ فَانْطَلَقْنَا بِهَا إِلَى رَسُولِ اللهَّ ﷺ، فَقَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللهَّ قَدْ خَانَ اللهَّ وَرَسُولَهُ وَالْمؤْمِنِينَ فَدَعْنِي فَلِأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ**، قَالَ حَاطِبٌ: وَاللهَّ مَا بِي أَنْ لَا أَكُونَ مُؤْمِنًا بِاللهَّ وَرَسُولِهِ ﷺ أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ لِي عِنْدَ الْقَوْمِ يَدٌ يَدْفَعُ اللهُّ بِهَا عَنْ أَهْلِي وَمَالِي، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِكَ إِلَّا لَهُ هُنَاكَ مِنْ عَشِيرَتِهِ مَنْ يَدْفَعُ اللهُّ بِهِ عَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **صَدَقَ وَلَا تَقُولُوا لَهُ إِلَّا خَيْرًا**، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللهَّ وَرَسُولَهُ وَالْمؤْمِنِينَ فَدَعْنِي فَلِأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ: أَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: **لَعَلَّ اللهَّ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمْ الْجَنَّةُ** - أَوْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ- فَدَمَعَتْ عَيْنَا عُمَرَ وَقَالَ اللهُّ وَرَسُولُهُ أَعْلَم»(٢).

وفي نهاية السورة نداء أيضًا للمؤمنين كأولها أن يتبرؤا من الكفار ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) «الظلال» ٧/ ١٨١.

(٢) رواه البخاري (٣٩٨٣) كتاب: المغازي، باب: فضل من شهد بدرًا، ومسلم (٢٤٩٤) كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أهل بدر وقصة حاطب بن أبي بلتعة.

ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾(١).

بل اسم السورة نفسها (الـممتحنة) أي: أيما امرأة كانت بمكة تحت زوجها الكافر فأسلـمت ثم هاجرت إلى الـمدينة حبًا وولاءً لله ولرسوله تمتحن من قبل الـمؤمنين بالـمدينة بأن تقسم بالله أنها ما خرجت وهاجرت إلا حبًّا في الله، ففي هذه الحالة تفصم عقدة النكاح ولا يحل لها أن ترجع إلى مكة قال تعالى مناديًا الـمؤمنين أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾(٢).

(وهكذا تكون تلك الأحكام بالـمفاصلة بـين الأزواج تطبيقـًا واقعيًـا للتصـور الإسلامي عن قيم الحياة وارتباطاتها، وعن وحـدة الصـف الإسـلامي وتميـزه مـن سائر الصفوف، وعن إقامة الحياة كلها على أساس العقيدة، وربطهـا كلهـا بمحـور الإيمان، وإنشاء عالـم إنساني تذوب فيه فـوارق الجنس واللـون واللغـة والنسـب والأرض.

وتبقى شارة واحدة تميز الناس.... شارة الحزب الذي ينتمون إليه(٣).

وإن الـمتتبع لقضية الولاء والبراء وما حولهـا مـن الآيـات في القـرآن الكـريم،

---

(١) الـممتحنة: ١٣.

(٢) الـممتحنة: ١٠-١١.

(٣) «الظلال» ٦/ ٣٥٤٧.

ليضع يده على قلبه فرقًا من هولها، وحذرًا من دقتها، ثم يتضرع إلى الله ﷻ رافعًا يديه بالدعاء أن يثبت قلبه على دينه ويصرفه إلى طاعته، فإن من لم يحكم هذه القضية فليخف على نفسه من الردة أو النفاق أعاذنا الله.

قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٣).

وقال تعالى حاكمًا بالردة بعد الإيمان: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾(٤) وقال تعالى حاكمًا بالنفاق: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾(٥).

ومن الجدير بالذكر أنه لم يذكر في القرآن إلا حزبان فقط في موضعين وفي كلا

---

(١) آل عمران: ٢٨.

(٢) المائدة: ٥١.

(٣) المائدة: ٥٤.

(٤) محمد: ٢٥-٢٦.

(٥) الحشر: ١١.

الـموضعين سبقا بأعظم آيتين في قضية الولاء والبراء.

الـموضع الأول: سورة الـمائدة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

والـموضع الثاني: سورة الـمجادلة ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾(٢).

فيدخل تحت معنى الولاء والبراء مظاهر [الطاعة – النصرة – الحب والرضا – الـمتابعة – الـمعاونة – الصداقة] ولوازم هذه الأمور كالتشبه والركون إليهم وإظهار مودتهم أما مظاهر البراء فعكس ذلك [البغض – الخذلان – الـمخالفة – الـمعاداة – ترك التشبه بهم...إلخ(٣).

(والولاء والبراء من أعظم أبواب التوحيد والإيمان بل لا يتحقق الإيمان والتوحيد إلا بتحقيقه، وهو ضمن مسائل توحيد الألوهية، فإن النبي ﷺ قال: **«أوثق عري الإيمان الـموالاة في الله والـمعاداة في الله والحب في الله والبغض في الله»**(٤)(٥).

* * *

(١) الـمائدة: ٥٤.

(٢) الـمجادلة: ٢٢.

(٣) انظر: «شرح الـمنة» د/ ياسر البرهامي ص١٩٣.

(٤) «السلسلة الصحيحة» (٩٩٨).

(٥) الـمصدر السابق ص١٩١ بتصرف.

(٤)

متضمنات الإيمان بالله

كثيرة هي طرق الهداية ومتنوعة، لا تكاد تحصر بعدد،ولئن قلنا إن عدد طرق الهداية تعدل عدد مخلوقات الله ما كنا مبالغين في ذلك. ففي زماننا الذي نرى فيه هذه الهجمة الشرسة- التي لا مثيل لها في التاريخ - على الإسلام وأهله، رغم كل هذا فإن قافلة المهتدين إلى هذا الدين في ازدياد وفي نمو بالغ يعجب لها شياطين الإنس أيما إعجاب! لكن الذي أريد أن أقوله هنا إن أمر الهداية والإيمان لا ينتهي عند الإشهار والإعلان، إنما هذه نقطة البداية في الطريق إلى الله ﷻ، فلا يكفي إشهار الإسلام وإعلان أني أؤمن بالله أو انطق الشهادتين، لا. هذا وحده لا يؤهل لسعادة الدنيا ولا لسكنى الفردوس، إنما الإيمان بالله ﷻ له إلزامات ومتضمنات.

يقول ابن عثيمين – رحمه الله-: (الإيمان يتضمن معنى زائدًا على مجرد التصديق، وهو الإقرار والاعتراف المستلزم للقبول للأخبار والإذعان للأحكام هذا هو الإيمان، أما مجرد أن تؤمن بأن الله موجود، فهذا ليس بإيمان، حتى يكون هذا الإيمان مستلزمًا للقبول في الأخبار والإذعان في الأحكام، وإلا فليس إيمانًا.

والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور:

١ - الإيمان بوجوده سبحانه وتعالى.

٢ - الإيمان بربوبيته، أي: الانفراد بالربوبية.

٣- الإيمان بانفراده بالإلوهية.

٤ - الإيمان بأسمائه وصفاته.

فلا يمكن أن يتحقق الإيمان إلا بذلك.

فمن لم يؤمن بوجود الله فليس بمؤمن، ومن آمن بوجود الله لا بانفراده بالربوبية، فليس بمؤمن ومن آمن بالله وانفراده بالربوبية لا بالإلوهية، فليس بمؤمن، ومن آمن بالله وانفراده بالربوبية والإلوهية لكن لم يؤمن بأسمائه وصفاته،

فليس بمؤمن، وإن كان الأخير فيه من يسلب منه الإيمان بالكلية وفيـه مـن يسـلب عنه كمال الإيمان[١].

مشروعية تقسيم التوحيد:

من باب الايضاح والتفصيل، قام علـماء السـلف رحمهـم الله بتأصيل وتقعيـد علـم التوحيد حفظًا للـملة، وصيانة للدين، ودفاعًا عن العقيدة، وذبًا عـن السـنة، كما تفضلوا من قبل بتنقيط الـمصحف ووضـع علامـات الضـم والفـتح والـكسر وغيرها، وكـما وضـعوا قواعـد للتجويـد، وغيرهـا مـن تأصـيل العلـوم الشرعيـة وضبطها، وذلك لـما كثرت الفتوحات ودخل الناس في ديـن الله أفواجًـا، وأصـبح عدد الأعاجم من الـمسلـمين يفوق عدد العرب أضعافًا مضاعفة.

فذهب غالب الـــمتقدمين مـن أهـل السـنة والجماعـة إلى تقسـيم التوحيـد إلى قسمين:

١ - **التوحيد العلمي**: وهذا القسم خاص بالـمعرفة والإثبـات أي معرفـة الله تبارك وتعالى وجودًا وذاتًا، وإثبات ما له من صفات وأفعال وأسماء.

٢ - **التوحيـد العملـي**: وهو خاص بصرف العبادة وأفعال العباد، فلا تصرف إلا لله وحده طلبًا وقصدًا وإرادة وتألهاً لذا فهو توحيد الألوهية وتوحيد الطلب والإرادة ومـن العلـماء من فصَّل في القسم الأول فجعله قسمين، قسم خـاص بتوحيـد الربوبيـة وآخـر خـاص بتوحيـد الأسـماء والصـفات فأصـبح بـذلك ثلاثـة أقسـام الربوبيـة- الأسـماء والصفات- الألوهية ولا يعني ذلك استقلال كل قسـم عـن الآخـر، بـل هـي متلازمـة يكمل بعضها بعضًا، ولا يمكن الاستغناء بأحدها عن الآخر، ومسلسلة ومرتبة ترتيبًا لا ينفك، فتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية، بمعنى أنك ما دمت آمنت بـالله تعـالى خالقًا مدبرًا مالكًا، أمدك بنعمتي الإيجاد والإمداد، خلقك من عدم ثم يميتك ثم يحييـك فيلزمك أن تعبده وحده، ولا تشرك بعبادته أحدًا ثم إن توحيد الألوهية مستلزم لتوحيـد

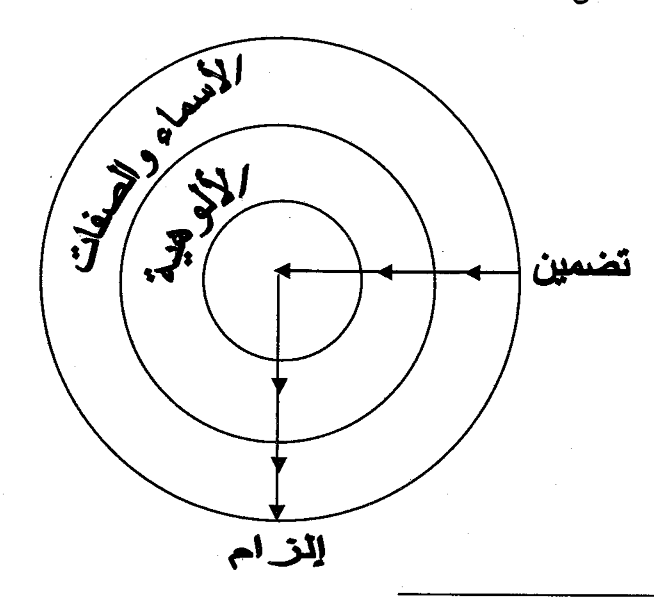
---

(١) «شرح العقيدة الوسطية» ص٤٧.

الأسماء والصفات، بمعنى أنك مادمت تعبد الله وحده فيلزمك أن تنزهه عن كل نقص، وأن تقدسه وتثبت له كل كمال من كل وجه.

ومن ناحية أخرى، فتوحيد الألوهية، متضمن لتوحيد الربوبية، لكون الأخير داخل ضمن الأول، فإنه من عبدالله وحده ولم يشرك به شيئًا لابد أن يكون معتقدًا، أنه هو ربه ومالكه، فهو يعبده لاعتقاده أنه سبحانه وحده الذي يملك النفع والضر وأما توحيد الأسماء والصفات فإنه شامل للتوعين السابقين فهو يقوم على إفراده سبحانه بكل ما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا التي لا تنبغي إلا له، ومن جملتها كونه ربًا واحدًا لا شريك له في ربوبيته ولا في ألوهيته، وفي الجملة: فالأنواع الثلاثة متلازمة متكاملة يكمل بعضها بعضًا، ولا ينفع أحدها بدون الآخر»[1] ويمكن تمثيل ذلك بثلاث دوائر متحدة المركز كبرى ومتوسطة وصغرى، تشير الكبرى إلى «توحيد الأسماء والصفات» والمتوسطة «توحيد الألوهية» والصغرى «توحيد الربوبية».

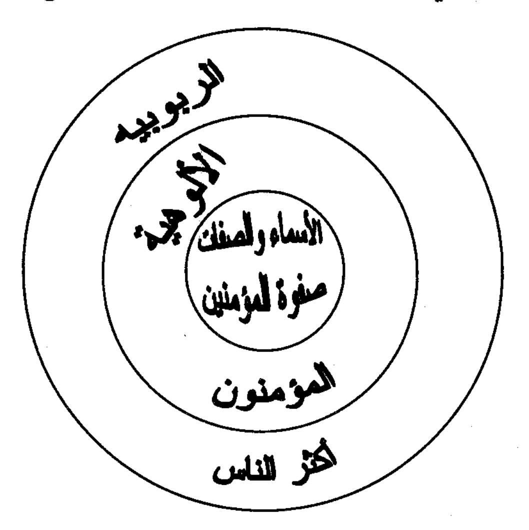
فالسهم من الخارج إلى الداخل يمثل التضمين، ومن الداخل للخارج يمثل الإلزام كما بالشكل (١).



(١) انظر كتاب «الشرك بالله- أنواعه وأحكامه» ص ٣٢٩.

أما عن تقسيم جمهور الناس تجاه هذه الأقسام الثلاثة من التوحيد. فلاشك أن توحيد الربوبية يشمل أكثر البشرية، اللهم إلا القليل النادر الشاذ من بني آدم، أما توحيد الألوهية فهو خاص بعباد الله المؤمنين الموحدين، الذين يعبدون الله ولا يشركون به شيئًا.

وأما «توحيد الأسماء والصفات» فمملكة راقية تخص صفوة المؤمنين الذين هم أقل عددًا «وقليل من عبادي الشكور» فيمكن تمثيل ذلك بثلاث دوائر أيضًا الكبرى للربوبية والتي تشمل أكثر الناس ثم الألوهية والتي تشمل عامة المؤمنين ثم الأسماء والصفات والتي تمثل صفوة المؤمنين كما بالشكل (٢).



«شبهات وردود حول أقسام التوحيد»:[١]

أثيرت بعض الشبهات حول تقسيم أهل السنة والجماعة للتوحيد إلى الأقسام السابقة، حتى وصل الأمر ببعض البلهاء أن وصف أقسام التوحيد بالتثليث، أما مدّعى الفقه منهم فقد أثار بعض الشبهات حول هذا التقسيم منها:

[أن هذا التقسيم اصطلاحي ليس له أصل ولا حقيقة شرعية].

---

(١) كأمثال: الشيوعيين، وسماهم علماء السلف (الدهريون) وهم الذين يقولون – لا إله – الحياة مادة.

وهذا ادعاء باطل من قلب غافل، فإنه باستقراء كتاب الله عز وجل بتفكر وتدبر تبرز معالم هذا التقسيم واضحة جلية، بل لولا هذا التقسيم لوقعنا في تناقض واختلاف، والله عز وجل يأمرنا بالتدبر لآياته حتى لا نقع في التناقض وحتى لا نضرب بعض القرآن ببعض قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ففي بعض الآيات يعترف الكفار بأن الله وحده هو الخالق المالك المدبر «توحيد الربوبية» فكيف يحكم عليهم بالنار!!

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ﴾ [يونس: ٣١].

قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء﴾ [العنكبوت: ٦٣].

وغيرها من الآيات كثير تدل على إيمان الكفار «بتوحيد الربوبية» أما سر دخولهم النار فكفرهم وشركهم في «توحيد الألوهية».

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

يقول ابن القيم رحمه الله في بيان دلالة القرآن على أنواع التوحيد:

«فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري - الربوبية والأسماء والصفات - وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي - توحيد الألوهية[1]».

---

(١) مدارج السالكين ص ٤٥٠.

ويقول السعدي- رحمه الله- في تفسير قولـه تعـالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

مبينًا أنها اشتملت على أقسام التوحيد الثلاثة، على توحيد الربوبية وأنه تعالى رب كل شيء وخالقه ورازقه ومدبره، وعلى توحيد الألوهية والعبادة وأنه تعالى الإله المعبود، وعلى أن ربوبيته موجبة لعبادته وتوحيده، ولهذا أتى فيه بالفاء في قوله «فاعبده» الدالة على السبب، فكما أنه رب كل شيء فليكن هو المعبود حقًا فاعبده، واشتملت على أن الله تعالى كامل الأسماء والصفات، عظيم النعوت جليل القدر وليس له في ذلك شبيه ولا نظير»(١).

ويقول العلامة بكر بن عبدالله أبو زيد- حفظه الله- «وهذا التقسيم الاستقرائي لدى متقدمي علماء السلف أشار إليه ابن جرير وغيره وقرره شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وصاحب تاج العروس وشيخنا الشنقيطي وآخرون، وهو استقراء تام لنصوص الشرع، وهو مطرد لدى كل أهل فن، كما في استقراء النحاة كلام العرب وتقسيمهم له إلى اسم وفعل وحرف، والعرب لم تفُه(٢) بهذا، ولم يعتب على النحاة في ذلك عاتب وهذا من أنواع الاستقراء»(٣).

* * *

(١) المواهب الربانية من الآيات القرآنية ص ٤٥.
(٢) لم تلفظ بها.
(٣) التحذير من مختصرات الصابوني صـ٣٠.

الله ﷻ موجود بنفسه

بادئ ذي بدء إن جاز لنا أن نقول إن الله موجود فينبغي لنا أن نقيده بقولنا: (موجود بنفسه أو موجود بذاته)؛ لأن وجوده ذاتي وهو سبحانه أوجد كل ما سواه.

وإن الذين ينكرون وجود الله ﷻ بالكلية هم شذّاذ بني آدم، وهم أفراد في العالم قديمه وحديثه سماهم علماء الإسلام (الدهريين) لما أشار به القرآن الكريم بقوله: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾(١).

وهذه الفئة من البشر قلة نادرة قد سبقت متبعوهم الأول إبليس - لعنه الله- فإنه لم يقل مقالتهم، بل قال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ﴾ وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾.

أما كفار قريش غلاظ الأكباد، فإنهم أيضًا لم ينكروا وجود الله بالكلية بل أقروا بوجوده وبربوبيته.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾(٢).

إنما كانوا يعبدون الأصنام ويتخذون الوسطاء؛ ليقربوهم إلى الله زلفى بزعمهم وبفلسفتهم الخرقاء.

والسواد الأعظم من الكفار قديمًا وحديثًا لا ينكرون وجود الله ﷻ بل جاءهم الكفر من طريق أخرى، فمنهم الذين نسبوا إلى الله الولد سبحانه، ومنهم الذين اتخذوا أصنامًا آلهة، ومنهم الذين جعلوا له شركاء الجن وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ

---

(١) الجاثية: ٢٤.

(٢) لقمان: ٢٥.

وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1].

وأما القلة القليلة النادرة الشاذة من البشر هم الذين عطلوا وجود الخالق بالكلية وإن كانت البقية الباقية من فطرتهم تأبى عنهم ذلك كما فعل أمامهم فرعون فهو القائل: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾[2] وهو القائل: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[3] فلما أدركه الغرق ناداه نداء الفطرة بعد أن فات الأوان: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[5].

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[6].

وهذه الآية قد كشفت خبايا نفوس هذه الفئة الشاذة، فهي لا تنكر إنما تجحد بعد أن تيقنت أن الله هو الحق وأنه الخالق المالك، وعللت لنا الآية سر هذا

---

(١) الأنعام: ١٠٠- ١٠٣.
(٢) القصص: ٣٨.
(٣) النازعات: ٢٤.
(٤) يونس: ٩٠- ٩٢.
(٥) النمل: ١٣- ١٤.
(٦) النمل: ١٤.

الجحود، إنه الظلـم والعلو، ويشمل الظلـم جميـع أنـواع الفسـاد في الأرض، مـن الفساد الأخلاقي إلى الفسـاد الـمالي والإداري، والخـروج عـن أوامـر الله ونواهيـه وأحكامه وقضائه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾(١).

وهو أيضًا التعدي لحدود الله: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾(٣).

أما (العلو) فهو الاستكبار في الأرض بغير حق وهو خاص بفئة قليلة من البشر (الـمستكبرون) الذين ينازعون الله في كبريائه وعظمته، وهم الذين يُخرجون العبـاد من عبادة رب العباد إلى عبادة الـمتكبرين في الأرض.

فهذا إذن هو سرِدِ الجحـود، الـتملص مـن قيـود الأوامـر والنـواهي - التـي في مكنونهـا سـعادة الإنسـان في الـدنيا والآخـرة - والانطـلاق إلى عالـــم الشـهوات والرغبات والـملذات والتي في باطنها الشقاء والعذاب للإنسان في الدنيا والآخرة.

فهذا هو اللغز وراء الإلحاد، فلا تظن أن قضية الإلحاد تقوم على أساس عقلي، أو على برهان علـمي كلا إن صنم (الطبيعة) الذي يتشدق به الـملحدون لا أساس لـه من الصحة.

فما الطبيعة على وجه التحديد؟!

يقول دارون - وهو من كبـار السـدنة -: إن الطبيعـة تخلـق كـل شيء ولا حـد لقدرتها على الخلق.

ثم يعود فيقول: إن الطبيعة تخبط خبط عشواء!

يا سبحان الله!

---

(١) الـمائدة: ٤٥.

(٢) الطلاق: ١.

(٣) البقرة: ٢٢٩.

هذا الإله المزعوم الذي ينسبون إليه الخلق لا هو عاقل ولا هو حكيم فكيف يستطيع هذا الإله المزعوم المتخبط أن يدير الكون بهذه الدقة المعجزة.

وكيف استطاع هذا الإله المزعوم أن يخلق الإنسان على هذه الصورة؟

إن الإنسان كائن عاقل ومدبر وله إرادة وغاية وهدف. فهل يستطيع شيء لا إرادة له ولا غاية أن يخلق كائنًا له إرادة وغاية؟! وهل يستطيع شيء لا عقل له أن يخلق كائنًا مفكرًا له عقل؟!

أما العلم فلنسمع فيه شهادة بعض العلماء الذين فتح الله بصيرتهم على جانب من الحقيقة وإن كانوا يعيشون في ذات الجاهلية المعاصرة التي تلف بلاد الغرب.

يقول عالم الأحياء والنبات (رسل تسارلز إرنست) الأستاذ بجامعة فرانكفورت بألمانيا: (لقد وضعت نظريات عديدة لكي تفسر نشأة الحياة في عالم الجمادات، فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين، أو من الفيروس، أو من تجمع بعض الجزئيات البروتينية الكبيرة، وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات. ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلم به هو أن جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بفشل وخذلان ذريعين... ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع على أن مجرد تجمع الذرات والجزئيات عن طريق المصادفة يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية. وللشخص مطلق الحرية في أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة، فهذا شأنه وحده... ولكنه إذ يفعل ذلك فإنما يسلم بأمر أشد إعجازًا وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله الذي خلق الأشياء ودبرها.

(إنني اعتقد أن كل خليلة من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها. وإن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد

بقدرته شهادة تقوم على الفكر والـمنطق. ولذلك فإني أؤمن بوجود الله إيمانًا راسخًا).

ويقول: (أ. كريس موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك في كتابه بعنوان «الإنسان لا يقوم وحده»: (ومما يدعو إلى الدهشة أن يكون تنظيم الطبيعية على هذا الشكل، بالغًا هذه الدقة الفائقة؛ لأنه لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضعة أقدام، لامتص ثاني أكسيد الكربون الأوكسجين، ولـما أمكن وجود حياة النبات).

(ولو كان الهواء أرفع كثيرًا مما هو، فإن بعض الشهب التي تحترق الآن بالـملايين في الهواء الخارجي كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية وهي تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلاً في الثانية، وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق. ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض، ولكانت العاقبة مروعة. أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة، كان يمزقه إربًا من مجرد حرارة مروره).

(إن الهواء سميك بالقدر اللازم بالضبط لـمرور الأشعة ذات التأثير الكيميائي التي يحتاج إليها الزرع، والتي تقتل الجراثيم وتنتج الفيتامينات، دون أن تضر بالإنسان إلا إذا عرض نفسه لها مدة أطول من اللازم. وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور – ومعظمها سام- فإن الهواء باق دون تلويث في الواقع، ودون تغير في نسبته الـمتوازنة اللازمة لوجود الإنسان، وعجلة الـموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الـماء – أي: الـمحيط- استمدت منه الحياة والغذاء والـمطر والـمناخ الـمعتدل والنباتات وأخيرًا الإنسان نفسه).

ويقول في مكان آخر من الكتاب: (إننا نقترب فعلاً من عالـم الـمجهول الشاسع، إذ ندرك أن الـمادة كلها قد أصبحت من الوجهة العلـمية مجرد مظهر لوحدة عالـمية هي في جوهرها كهربائية، ولكن مما لا ريب فيه أن الـمصادفة لـم يكن لها دخل في تكوين الكون؛ لأن هذا العالـم العظيم خضع للقانون).

(إن ارتقاء الإنسان إلى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده في خطوة أعظم من أن تتم عن طريق التطور المادي، ودون قصد إبداعي).

(وإذا سلمنا بوجود القصد، فإن الإنسان قد يعتبر جهازًا، ولكن ما الذي يدير هذا الجهاز؟ لأنه بدون أن يدار لا فائدة منه، والعلم لا يعلل من يتولى إدارته وكذلك لا يزعم أنه مادي).

(لقد بلغنا من التقدم درجة تكفي؛ لأن نوقن بأن الله قد منح الإنسان قبسًا من نوره).

ويقول سير (أرثر طومسون) المؤلف الاسكتلندي الشهير تحت عنوان «العلم والدين»: (... نحن نقرر عن روية أن أعظم خدمة قام بها العلم أنه قاد الإنسان إلى فكرة عن الله أنبل وأسمى، ولا نجاوز المعنى الحرفي حين نقول: إن العلم أنشأ للإنسان سماء جديدة وأرضًا جديدة، وحفزه من ثم إلى غاية جهده العقلي، فإذا به في كثير من الأحيان لا يجسد السلام إلا حين يتخطى مدى الفهم، وذلك في اليقين والاطمئنان إلى الله.

ولسنا نذكر هذه الشواهد لنستدل بها على وجود الله، فعندنا كتاب الله يكفينا، والفطرة التي فطر الله الناس عليها تشهد بذاتها. ولكننا نذكرها فقط لأن بعض الدين فتنهم التقدم العلمي في هذا القرن يظنون أن العلم يقتضي عدم الإيمان بالله!![1]

* * *

(١) ركائز الإيمان بتصرف ص ١٥٥..

(٥)

الخالق في فطرة كل مخلوق

بث الحياة في الكائنات من أسرار الله تعالى، ونفخ الروح في الأحياء من المعجزات التي يؤيد بها الله من يشاء من أنبيائه، وقد طلب أبو الأنبياء ﷺ رؤية كيفية إحياء الموتى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١].

وأيد الله ﷻ نبيه وكلمته عيسى ﷺ بمعجزة إحياء الموتى وهي من جنس ميلاده لعل قومه يفقهون، فإن ميلاده وبث الحياة فيه يختلف فيها عن جميع بني آدم، فالحياة والروح معجزة لا قدرة لعقل البشر لمعرفة كنهها أو أن يعلم شيئًا من أسرارها، ومن أسرار الحياة والروح الفطرة التي هي بداية النشأة وأول الخلقة، فقد فطر الله جميع المخلوقات على معرفته وأنه الذي خلق وذرأ وبرأ، جاء في «لسان العرب» عند معنى هذه اللفظة: (فطر الله الخلق يفطرهم: خلقهم وبدأهم، والفطرة: الابتداء والاختراع وفي التنزيل ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٢].

قال ابن عباس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما أنا فطرتها أي ابتدأت حفرها.

والفطرة: وما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به.

وقيل: فَطِرَ كل إنسان على معرفته، فإن الله رب كل شيء وخالقه.

---

(١) البقرة: ٢٦٠.

(٢) فاطر: ١.

ويقال: كل مولود يولد على الفطرة التي فطر الله عليها بني آدم حين أخرجهم من صلب آدم كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾[1].

قال إسحاق بن الأثير في قوله: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ».

قال: الفطر: الابتداء والاختراع، والفطرة منه الحالة، والمعنى أنه يولد على نوع من الجبلة والطبع المتهيئ لقبول الدين فلو ترك عليها لاستمر على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها، وإنما يعدل عنه من يعدل لآفة من آفات البشر والتقليد[2].

ولنا مع الجملة الأخيرة وقفة تأمل (وإنما يعدل عنه من يعدل لآفة من آفات البشر والتقليد) وزد على آفات البشر والتقليد رأس الشر.

إبليس – لعنه الله– الذي أخذ على نفسه العهد بإضلال بني آدم وأقسم بعزة الله على إغوائهم: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[3].

ولما أعطى الشيطان القدرة على الوصول إلى قلب ابن آدم حيث أنه يجري منه مجرى الدم من العروق أيقن على تمكنه من إغواء بني آدم. ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[5].

---

(١) الأعراف: ١٧٢.
(٢) «لسان العرب» ص٣٤٣٤.
(٣) ص: ٨٢– ٨٣.
(٤) الإسراء: ٦٢.
(٥) سبأ: ٢٠.

فشياطين الجن يقومون بدور كبير في إفساد الفطرة وانتكاسها، وقد ثبت في صحيح مسلم عن عياض ابن حمار أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم، فكان مما جاء في خطبته: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلمكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلمني يَوْمِي هَذَا كُلُّ مَالٍ نَحلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَم أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الماءُ تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا، فَقُلْتُ: رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً، قَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ، وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ، وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ، قَالَ: وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِم، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ، قَالَ: وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبْرَ لَهُ الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تبَعًا لَا يَبْتَغُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا، وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ، وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ - وَذَكَرَ الْبُخْلَ أَوْ الْكَذِبَ -، وَالشِّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ»(١).

قوله: (وإنما يعدل عنه من يعدل لآفة من آفات البشر والتقليد).

أي: يعدل عن الدين الحق والفطرة السليمة.

وإن أعظم آفات البشر في تاريخ البشرية كله والتي نتج عنها انتكاس الفطرة وشيوع موجات الإلحاد في جنبات الأرض فشقيت الأرض وأهل الأرض، ظلم أهل الصلبان وضلال القسيسين والرهبان، وما ذكروا في القرآن إلا أشار الله إليهم بالضلال، فهم أمة الضلال (النصارى) والذين أصبحوا بدورهم آلة خبيثة رخيصة

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥) كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار.

في يد الأمة الغضبية (اليهود) لذا فقد فرض على المسلم أن يتبرأ منهم في كل صلاة ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾(١).

فهم الذين لعنهم الله في كتب سماوية أخرى غير القرآن قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٧٧ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٧٩ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾(٢).

الإلحاد الشيوعي:

ويضاف إلى تلك الحقيقة حقيقة أخرى وهي أنه لم يعرف الإلحاد بإنكار الخالق ﷻ بين أجناس البشر قاطبة إلا في القرنين الثامن عشر، والتاسع عشر الميلادي، وبخاصة عندما ظهر المذهب الشيوعي الماركسي اللينيني المدمر والذي نُكِبت به أوروبا وأنحاء كثيرة من العالم، فإنه وإن كان هناك كفر بالله تعالى، وشرك به بين الأمم والشعوب البشرية، غير أن الشعور الفطري قائم في كل نفس بالاعتراف بوجود سلطان الله تعالى، والناس يتوسلون إليه بشتى الوسائل استجلابًا للخير منه، ودفعًا للشر بواسطته. إن كل الآلهة التي أوجدها الإنسان باطلاً، وقدم لها مختلف العبادات، وتقرب إليها بشتى القرب، الأصل فيها الشعور الفطري بوجود الله، الخالق، المدبر للخلق، والكون معًا.

---

(١) الفاتحة: ٦- ٧.

(٢) المائدة: ٧٧: ٨١.

عوامل الإلحاد في العالم:

إن العوامل التي ساعدت على انتشار الإلحاد في العالم، ومكنت للمذهب الشيوعي الإلحادي المدمر في أوربا وغيرها قد تكون كثيرة غير أن أهمها عندي في نظري خمسة لا غير وهي:

١- ظلم الكنيسة النصرانية، وتحالفها مع الملوك النصارى على استعباد الشعوب النصرانية واستذلالهم، واستغلالهم باسم السلطة الروحية الدينية.

٢- فساد الديانة النصرانية، وبطلانها، ومنافتها للعقول، وتصادمها مع حاجات الإنسان الفطرية، الأمر الذي يسهل على الناس من اتباعهم التنكر لها، والكفر بها بمجرد وجود من استطاع أن يفلت من زمامها، وينتقدها، ويبين خطأها.

٣- طفرة العلوم الكونية، والصناعية والآلية، طفرة أدهشت العقول وحيرتها، الأمر الذي حمل الناس على تصديق كل نظرية تأتي باسم العلم ونظرياته، وإن كان النظرية قرية ظاهرة معلوم كذبة، ومعروف كذبها، وذلك لأن المرء إذا ضعف أمام أية قوة مادية أو روحية يفقد كل قواه العقلية والبدنية، ويصبح قابلاً لكل ما تمليه عليه، مستجيبًا لكل ما تدعوه إليه، مصدقًا لكل ما تقوله وتخبر به.

٤- ميل الإنسان بطبعه إلى الشهوات والملاذ، ونفوره من القيود، والأنظمة التي تحد من ميوله، وتوجه غرائزه، لاسيما إذا وجد مشجعًا على ذلك، مؤبدًا له في نزعته التحررية الإباحية، التحليلية من كل القيود الأخلاقية، والالتزامات الدينية الشرعية.

٥- غيبة الحكم الإسلامي، وخفوت نور الإسلام، وتقلص ظل سلطانه الروحي، وانحسار مده الخيري الذي كان يعطي البشرية في شتى أنحاء العالم طاقات كبيرة من القيم الروحية، والأخلاق البشرية الفاضلة الكريمة؛ إذ الفترة التي ظهر فيها المذهب المادي الشيوعي كان الإسلام قد ران على عقائده رين الخرافات والضلالات، وحل بدياره الدمار، وبأسواق علومه ومعارفه الكساد

والبوار، نتيجة لكيد أعدائه له، وغفلة بنية عنه، فوجد لـذلك الـمذهب الإلحـادي الجو خاليًا للتضليل، والـمغالطة، والفساد، فحكـم عـلى الأديـان كلهـا بـالبطلان، ونسب كل ضعف في الناس إليها، وكفر بها وحاربها، ووجه نقده إليها بلا هوادة.

أما والله لو وجد الإسلام حاضرًا ما غاب، فوجـد اختراعاتـه، وتفوقـه في كـل مجالات الحياة العلـمية، من كونيه، وتقنية، وتشريعيـة، وروحيـة، ووجـد عدلـه في شعوبه، ورحمـتهم في النـاس أجمعـين، ووجـد سـعادته تغمـر أهلـه، وتتعـداهم إلى خصومهم وأعدائهم، لـما أمكن الـمذهب الإلحادي أن يقول، فضلاً عـن أن يجـول أو يصول، ولكن الأمر كما قال القائل:

بـذا قضـت الأيـام مـا بـين أهلهـا مصـائب قـوم عنـد قـوم فوائـد

هذه خمسة عوامل، كل واحد منها ساعد على نشر الـمذهب الإلحادي الـمدمر الذي يحتاج العالـم اليوم، وقد يحو البشرية إلى حيوانية من أحط ما تكـون الحيوانيـة إن لـم يعارض بسرعة، ويوقف عند حده.

وإني لا أرى أن مذهبًا في العالـم، أو قوة ستعارضه، وتوقفه عند حده فضلاً عن أن تبدده، وتقضي عليه، اللهم إلا أن يكون الإسلام، والإسلام وحـده، إذا مـا رزق دولة عظيمة، تؤمن به في صدق، وتطبقه بحزم وعزم وتعطيه الحكم والقيـادة، فـإن هذه الدولة سوف تحل عقدة الإلحاد الـمستعصية وتـري النـاس زيـف النظريـات الإلحادية، وادعاءاتها الباطلة ضد دين الله الحق.

أوروبا الضحية الأولى:

وبما أن أوروبا هي التي جرَّت هذه الـمحنة على العالـم الإنساني، فإنها ستكون قطعًا هي الضحية الأولى للإلحاد الشيوعي، وقد كانت فعلاً وحتى لا نكون قد تجنينا عليها في هذا فإنا نقول: إنه بعد أن ظهر الإسلام، وعرفت أوروبا في الجملة صلاحيته لهداية البشر، وإعدادهم للحياة الفاصلة، وسعادة الدنيا والآخرة، بدل أن تعتنقه دينًا، وتحتضنه مبادئ خير، وسعادة، وإسعاد، قاومته ووقفت في طريق تقدمه

وانتشاره، ومن العجيب أنها حاربته باسم الدين المسيحي والنصرانية كأنها لم تدر أن الإسلام هو دين الله الحق الذي أرسل به نبيه محمدًا ﷺ إلى البشرية كافة. وأما المسيحية فلم تكن سوى دين إقليمي محلي فقط؛ لأن عيسى عليه السلام لم يكن رسولاً إلى غير بني إسرائيل أبدًا. فقد قال هو بنفسه: (لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة). وقال عنه القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[1].

أما محمد ﷺ فهو رسول الله إلى الناس كلهم أجمعين بدليل قوله هو ﷺ: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ»[2]. وقول الرب تعالى له: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[3].

وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[4].

وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[5].

والأغرب من هذا أن اليهود الذين حاربوا السيد المسيح وألجأوا حوارييه إلى رؤوس الجبال، والذهاب في كل منأى بعيد فرارًا بدينهم، هم الذين وضعوا الديانة النصرانية الباطلة، التي حاربت أوروبا الإسلام من أجلها، إن اليهود يبدو أنهم لما رأوا مبادئ السيد المسيح تنتشر في شرق أوروبا طاردوها، فتمسح من تمسح منهم خديعة وغشًّا حتى تمكن من العبث بالدين المسيحي وتحويله إلى دين وثني يبرأ منه المسيح الذي قال في مهده:

﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ سورة مريم الآية (٣٠)[1]. وقال وهو نبي ورسول:

---

(١) الصف: ١.
(٢) رواه البخاري ومسلم مطولاً، «اللؤلؤ المرجان» ١/ ١٠٤.
(٣) الأعراف: ١٥٨.
(٤) سبأ: ٢٨.
(٥) الفرقان: ١.

﴿يَـٰبَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ﴾(٢).

وليس أدل على ذلك من أن الإنجيل الواحد قد حول إلى عدة أناجيل.

أقول: إنه بعد أن تجلى لأوربا صلاحية الإسلام، وأنه رحمه الله العامة للناس أجمعين أبيضهم وأسودهم، ولم يكن دين العرب وحدهم، ولا دين الآسيويين دون الأفارقة، أو الأوروبيين؛ بل هو دين البشر كلها حيث كانت ووجدت.

أقول بعد أن ظهرت لأوروبا صلاحية الإسلام لهداية الناس أجمعين، بدل أن تقبل عليه، وتحتضنه وتسعد به، وتسعد الناس به أخذت تحاربه، وتحارب المؤمنين به، والمتبعين لمنهجه، فشنت حوربًا صليبية لا هوادة فيها، وأخرى استعمارية لا رحمة فيها، وقضت بها على الخلافة الإسلامية بعد أن استعملت أسلوب اليهود في المكر والدس والخديعة، لإفساد العقيدة الإسلامية، فتعاونت سرًّا وعلانية مع الزنادقة والباطنية، المتصوفة والطريقيين، ومع سائر الفرق الإسلامية المنحرفة الضالة، ممن يحسبون على الإسلام وهم أشد أعدائه فتكًا به، وإفسادًا له، وقضاءً عليه.

وأخيرًا وبعد أن قررت أوروبا التخلي عن مستعمراتها الإسلامية لعدم الجدوى لها في بقائها فيها صنعت على عينها، وبيدها رجالاً من مستعمراتها ملء إهاب أحدهم عداوة للإسلام، وحنقًا عليه، وتفززًا منه، واستخفافًا به، وبمبادئه وشرائعه، وسلمتهم السلطة المحلية، وخرجت من الباب لتعود من النافذة، وتجلس على عرش قلوب أولئك الصنائع لتسخرهم. عملاء لها، يواصلون نيابة عنها حربهم للإسلام وأهله، وكذالك كانوا وفعلوا حتى لم يبق من الإسلام إلا الاسم، ومن كتابه إلا الرسم، وبناء على الحكمة القرآنية القائلة:

---

(١) مريم: ٣٠.

(٢) المائدة: ٧٢.

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[١].

فإن أوروبا ستذوق في يوم من الأيام أقسى محنة، وستتجرع أعظم غصة، نتيجة جريمتها على الإسلام دين الله الذي هو دينها، ولا دين لها على الحق سواه، وما ظلمها الله فيما سيصيبها به، ولكن كانت هي الظالمة[٢].

وهنا نحن في منتصف العقد الأول من القرن الحادي والعشرين ما زالت أوربا الجديدة (أمريكا) وحولها أوربا القديمة يجمعون خيلهم ورجلهم ويعلنون النفير العام لحرب الإسلام بعد أن غزتهم عقيدة الإسلام في عقر دارهم بلا خيل ولا ركاب، فتملكهم الذعر والفزع على تراثهم إلا لحادي العتيق وأصابهم المرض الأوربي الجديد (إسلاموفوبيا) أي: الفزع الشديد والخوف الأكيد من الإسلام الحنيف الذي سيكون سببًا عظيمًا في انحسار موجات الإلحاد في البلاد وقلوب العباد بإذن الله تعالى إنها مسئولية عظيمة على عاتق أمة الإسلام أهل التوحيد الخالص والدين الحق إن هذه الأمة لم يخرجها الله ﷻ ويجعلها خير أمة في التاريخ لتعيش في حدود نفسها فحسب، بل لتكون قائدة ورائدة لكل البشرية.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[٣].

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا

---

(١) فاطر: ٤٣.

(٢) «عقيدة المؤمن» ص٥٥ – ٥٨.

(٣) آل عمران: ١١٠.

كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

ولشيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله– المكانة الرفيعة في الحديث عن فطرية المعرفة بوجود الله تعالى وسنحاول ما استطعنا أن نؤصل به الحديث في هذه القضية.

يقول – رحمه الله-: وأشهر من عرف تجاهله، وتظاهره بإنكار الصانع فرعون، وقد كان مستيقنًا به في الباطن، كما قال موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾(٢).

وقال تعالى عنه، وعن قومه ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾(٣).

ونصَّ شيخ الإسلام في موضع آخر على فرعون كان معترفًا بالله في الباطن فقال: (وفرعون لم يقل هذا لعدم معرفته في الباطن، ولكن أظهر خلاف ما في نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾(٤)).

وأما الدهرية فهم لم ينكروا وجود الله تعالى، كما قال الشهرستاني (ت ٥٤٨)، (أما تعطيل العالم عن الصانع العليم، القادر الحكيم، فلست أراها مقالة، ولا عرفت عليها صاحب مقالة، إلا ما نقل عن شرذمة قليلة من الدهرية أنهم قالوا: كان العالم في الأزل أجزاءً مبثوثة، تتحرك على غير استقامة فاصطكت اتفاقًا، فحصل العالم بشكله الذي تراه عليه، ولست أرى صاحب هذه المقالة ممن ينكر وجود الصانع، بل هو يعترف بالصانع، لكنه يحيل سبب وجود العالم على البخت والاتفاق، احترازًا عن التعليل).

---

(١) البقرة: ١٤٣.
(٢) الإسراء: ١٠٢.
(٣) النمل: ١٤.
(٤) النمل: ١٤.

ومما يجب العلم به أن هذا المصطلح - أي: وجود الله تعالى- أو إثبات الصانع، أو إثبات واجب الوجود، وغيرها. هي مصطلحات مبتدعة، برزت في الوسط الإسلامي، مع ظهور فرق الابتداع، واختلاط المسلمين بأهل الشك والريب، من أهل البلاد المفتوحة، فما كانت البيئة الإسلامية تعرف مثل هذه المصطلحات المحدثة.

ولعل مثل هذه المقالات روجها زنادقة البلاد المفتوحة؛ حقدًا وحسدًا على هذا الدين وأهله، عندما هالهم سرعة انتشاره وتقبله من أهل تلك البلاد، فعكف هؤلاء الزنادقة وغيرهم من القادة الدينين على تأليف المقالات المنحرفة وزرع الشبه والريب بين المسلمين الجدد.

ومما يوضح هذا التعليل أن بلاد فارس والعراق وغيرها قد تعرضت إلى هجمات فكرية عنيفة من الصابئة ودهاقنة الفرس يعاونهم اليهود والنصارى، والسمنية الهنود، الذين كانوا يطوفون في البلاد الإسلامية ويزرعون الشبه والشكوك، ولاشك أن هذه الجماعات قد نشأت ونظمت نفسها، وبدأت عمليها في القرن الأول الهجري.

ومن أمثلة ذلك ما روي أن مجموعة من الملاحدة سألوا: (ما الدلالة على وجود الصانع، فقال[1] لهم: دعوني فخاطري مشغول بأمر غريب، قالوا: ما هو؟ قال: بلغني أن في دجلة سفينة عظيمة مملوءة من أصناف الأمتعة العجيبة؛ وهي ذاهبة وراجعة من غير أحد يحركها ولا يقوم عليها، فقالوا له: أمجنون أنت؟ قال: وما ذاك؟ قالوا: أهذا يصدقه عاقل؟ فقال: فيكف صدقت عقولكم أن هذا العالم بما فيه من الأنواع والأصناف العجيبة وهذا الفلك الدوار السيار يجري وتحدث هذه الحوادث بغير محدث وتتحرك هذه المتحركات بغير محرك؟ فرجعوا على أنفسهم بالملام).

---

(١) تنسب هذه المقالة للإمام أبي حنيفة النعمان رحمه الله.

ومنها أيضًا أولئك السمنية الهنود الذين جادلوا الجهم بن صفوان (ت١٢٨هـ) في الإله المعبود فتحير الجهم، ولم يدر ما يجيب وتوقف عن الصلاة أربعين يومًا حتى يتبين له ما يعبد بزعمه، ثم أحدثت هذه المجادلة الانحراف الكبير في عقلية الجهم، مما حدا به إلى نفي الصفات، وفتح بابًا كبيرًا من أبواب الشر في عقيدة الأمة.

فهذه الموجات الإلحادية التي غزت العالم الإسلامي في مراحل تكونه الأولى كانت من أهم الأسباب التي فتحت باب الجدل في وجود الله تعالى، وفي أسمائه وصفاته، على تلك الطريقة المبتدعة المذمومة، التي خالفت ما جاء به الكتاب والسنة من تقرير هذه المسائل بالطريقة السهلة الميسرة المقبولة.

وقد عقَّد الفلاسفة والمتكلمون طرق معرفة الله الفطرية، التي جاء بها القرآن الكريم، والسنة المطهرة، والتي امتدحها الله سبحانه وتعالى، فقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

وعن أبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ»، ثم قال أبو هريرة ﷺ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢)(٣).

وفي «صحيح مسلم» عن عياض بن حمار أن النبي ﷺ قال: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ، فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُم، وَأَمَرَتْهُم أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَم أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا»(٤).

---

(١) الروم: ٣٠.

(٢) الروم: ٣٠.

(٣) رواه البخاري (١٣٥٨) كتاب: الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين.

(٤) رواه مسلم (٢٨٦٥) كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة.

قال شيخ الإسلام معلقًا على هذا الحديث: (فأخبر أنه خلقهم حنفاء، وذلك يتضمن معرفة الرب، ومحبته، وتوحيده، فهذه الثلاثة تضمنتها الحنيفية، وهي معنى قوله: (لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ)، فإن هذه الكلمة الطيبة التي هي كشجرة طيبة أصلها ثابت، وفرعها في السماء، فيها إثبات معرفته، والإقرار به، وفيها إثبات محبته، فإن الإله هو المألوه الذي يستحق أن يكون مألوهًا، وهذا أعظم ما يكون من المحبة. وكل مولود يولد على الفطرة، وهي الحنيفية التي خلقهم عليها، ولكن أبواه يفسدان ذلك، فيهودانه، وينصرانه، ويمجسانه، ويشركانه، كذلك يجهانه، فيجعلانه منكرًا لما في قلبه من معرفة الرب، ومحبته، وتوحيده ثم المعرفة يطلبها بالدليل، والمحبة ينكرها بالكلية، والتوحيد المتضمن للمحبة ينكره بالكلية).

ودليل الفطرة من أسمى الأدلة الناطقة على وجود الله تعالى، فلذلك خاطبت الأنبياء والرسل أقوامهم على الدعوة لتوحيده، وعبادته، ولم تقم الأدلة على وجوده تعالى، فهو المعبود الحق الذي فطر على معرفته والإقرار به جميع الخلق، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (أما إثبات الصانع فطرقه لا تحصى، بل الذي عليه جمهور العلماء أن الإقرار بالصانع فطري ضروري مغروز في الجبلة، ولهذا كانت دعوة الرسل إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وكان عامة الأمة مقرين بالصانع مع إشراكهم به بعبادة ما دونه، والذين أظهروا إنكار الصانع، كفرعون خاطبتهم الرسل خطاب من يعرف أنه حق، كقول موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾[1]، ولما قال فرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] قال له موسى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ

---

(١) الإسراء: ١٠٢.

(٢) الشعراء: ٢٣.

وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[١]، ولما قال فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[٢]، فكان جواب موسى له جوابًا للمتجاهل الذي يظهر أنه لا يعرف الحق، وهو معروف عنده).

أمام هذه الحقيقة الفطرية الكبرى، التي كانت تحياها البشرية، ومنها قريش والعرب، الذين بعث منهم رسول الله ﷺ، فإننا نقول باطمئنان أن أحدًا منهم لم يسأل عن وجود الله تعالى، فهذه الآيات القرآنية التي خاطبت المؤمنين والمشركين في تلك الفترة خاطبتهم جميعًا على أنهم مؤمنين بوجود الله تعالى، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[٤].

وتكررت مثل هذه الآيات في سورة لقمان: ٢٥، وسورة الزمر: ٣٨، وسورة الزخرف: ٩- ٨٧، وغيرها من الآيات التي يطول حصرها.

فهذه الآيات المنثورة في الكتاب العزيز على إقرار المشركين بربوبية الله، وأنه الخالق الرازق المحيي المميت، تؤكد أصالة الفطرة، ولكنهم أفسدوها بإشراكهم مع الله تعالى آلهة أخرى من الآلهة التي ما أنزل الله بها من سلطان.

وقد أكدت حياة الصحابة - رضوان الله عليهم- وسيرتهم التي وصلتنا، وخاصة عند بداية إسلامهم أن أحدًا منهم لم يسأل عن وجود الله تعالى، ولكنهم كانوا يسألون عن متطلبات الإيمان بالله تعالى: وواجباتهم تجاهه، لنيل رضوانه،

---

(١) الشعراء: ٢٤- ٢٨.

(٢) طه: ٤٩- ٥٠.

(٣) العنكبوت: ٦١.

(٤) العنكبوت: ٦٣.

وثوابه، والنجاة من غضبه وعقابه، وهذه بعض النصوص التي تؤكد سلامة فطرة الصحابة، وسلوكهم المسلك الفطري في الإيمان بالله تعالى.

فقد روي عن البخاري ومسلم عن أنس بن مالك ﷺ، قال: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي المسْجِدِ دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ، فَأَنَاخَهُ فِي المسْجِدِ، ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ، فَقُلْنَا: هَذَا الرَّجُلُ الأَبْيَضُ المتَّكِئُ فَقَالَ لَهُ: الرَّجُلُ يَا ابْنَ عَبْدِ المطَّلِبِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: قَدْ أَجَبْتُكَ، فَقَالَ الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِنِّي سَائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ فِي المسْأَلَةِ، فَلَا تَجِدْ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ، فَقَالَ: سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ، فَقَالَ: أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ، وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ آللهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللهِ آللهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، قَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللهِ آللهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ، قَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللهِ آللهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِنَا فَتَقْسِمَهَا عَلَى فُقَرَائِنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: نَعَمْ، فَقَالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي، وَأَنَا ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ»[1].

وفي رواية مسلم أنه استدل على عظيم قدرة الله في خلقه، فقال: (يَا مُحَمَّدُ، أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَكَ، قَالَ: صَدَقَ، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: اللهُ، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الأَرْضَ، قَالَ: اللهُ، قَالَ فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الجِبَالَ وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قَالَ: «اللهُ» قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَخَلَقَ الأَرْضَ وَنَصَبَ هَذِهِ الجِبَالَ آللهُ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ)[2].

وعندما جاء جبريل عليه السلام على هيئة رجل ليعلم الصحابة دينهم لم يسأل النبي ﷺ عن وجود الله تعالى، ولو كان للسؤال عنه ضرورة، لكان السؤال عنه أولى، فقد أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قال:

---

(١) رواه البخاري (٦٣) كتاب: العلم، باب: القراءة والعرض على المحدث.

(٢) رواه مسلم (١٢) كتاب: الإيمان، باب: السؤال عن أركان الإسلام.

(حدثني أبي عمر بن الخطاب ﷺ قال: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِحْسَانِ، قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَم تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ... الحديث»(١).

وعندما جاء وفد عبد القيس كان رسول الله ﷺ يوضح لهم معنى الإيمان، ولم يرد في هذا التوضيح أي إشارة عن وجود الله، ولو كان ذلك مطلوبًا، لكان الحديث عنه أولى وأهم، ولكن فطرية المعرفة به تعالى جعلتهم في غنى هذا، فقال لهم – عليه الصلاة والسلام– (بعدما أمرهم بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ، قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَم، قَالَ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ...الحديث»)(٢).

وعندما سأل النبي ﷺ الجارية – لم يسألها أمؤمنة أنت بوجود الله، وإنما سألها وهو واثق بصدق يقينها بوجود ربها وخالقها سبحانه، فقال أين الله؟ ففي الحديث المشهور عن معاوية بن الحكم السلمي ﷺ قال: (كَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُعْتِقُهَا؟ قَالَ: «ائْتِنِي بِهَا، فَأَتَيْتُهُ بِهَا، فَقَالَ

(١) رواه البخاري: (٥٠) كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل عن الإيمان، ومسلم (٨) كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان.

(٢) رواه البخاري (٥٣): كتاب: الإيمان، باب: أداء الخمس.

لَهَا: أَيْنَ اللهُ؟ قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ قَالَ: مَنْ أَنَا؟ قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»)(١).

ولم يكن السؤال عن الله تعالى، وعن أمور الاعتقاد ممنوعًا، كما توهم المبطلون، فلقد كان الصحابة – رضوان الله عليهم- يسألون ويجيبهم النبي ﷺ، فقد روى ابن ماجه في «سننه» عن أبي رزين العقيلي ﷺ، قال: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيْنَ كَانَ رَبُّنَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ؟ قَالَ: «كَانَ فِي عَمَاءٍ مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ وَمَا ثَمَّ خَلْقٌ عَرْشُهُ عَلَى الماءِ»)(٢).

ومن الأسئلة الهامة في هذا الشأن ما رواه عمران بن حصين ﷺ، قال: (إِنِّي عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَهُ قَوْمٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَالَ: اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ، قَالُوا: بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا، فَدَخَلَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، فَقَالَ: اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لم يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ، قَالُوا: قَبِلْنَا جِئْنَاكَ لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ، وَلِنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ مَا كَانَ، قَالَ: كَانَ اللهُ وَلم يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماءِ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، ثُمَّ أَتَانِي رَجُلٌ فَقَالَ يَا عِمْرَانُ: أَدْرِكْ نَاقَتَكَ فَقَدْ ذَهَبَتْ، فَانْطَلَقْتُ أَطْلُبُهَا، فَإِذَا السَّرَابُ يَنْقَطِعُ دُونَهَا، وَايْمُ اللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّهَا قَدْ ذَهَبَتْ، وَلم أَقُمْ»)(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (مراده إخباره عن خلق هذا العالم المشهود الذي خلقه الله في ستة أيام، ثم استوى على العرش كما أخبر القرآن العظيم بذلك في غير موضع).

فمثل هذه الأسئلة توضح مدى سعة أفق الصحابة – رضوان الله عليهم- ورغبتهم الشديدة في معرفة كل أمور عقيدتهم، ودينهم، وقد نبه شيخ الإسلام ابن

---

(١) مسلم (١٨٢) كتاب: المساجد، باب: تحريم الكلام في الصلاة.

(٢) رواه ابن ماجه في «سننه» (١٨٢).

(٣) رواه البخاري (٧٤١٨) كتاب: التوحيد، باب: وكان عرشه على الماء.

تيمية على صحة هذه الأسئلة، وأن النبي ﷺ كان يجيب عليها، ويسأل بمثلها، فقال: (وهذا يبين أن سؤال السائل: أين كان ربنا؟ في حديث رزين، لـم يكن هذا السـؤال فاسدًا عنده ﷺ كسؤال السائل: من خلق الله؟ فإنه لـم ينـه السـائل عـن ذلـك؛ ولا أمره بالاستعاذة، بل النبي سأل بذلك لغير واحد، فقال له: أين الله؟ وهـو منـزه أن يسأل سؤالاً فاسدًا، وسمع الجواب عن ذلك، وهو منزه أن يقر على جواب فاسـد، ولـما سئل عن ذلك أجاب، فكان سائلاً به تارة، ومجيبًا عنه أخرى.

وقد تعرض بعض الصحابة – رضوان الله عليهم- لخطرات ووساوس وسألوه عنها ﷺ فأجابهم بما يدفعها. وهذا يوضح أصالة فطرتهم وخوفهم على إيمانهم، فقـد روى مسلـم في «صحيحه» عن أبي هريرة ﷺ قال: (جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلُوهُ إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلـم بِهِ، قَالَ: «**وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ**، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: **ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ**»)(١).

وعن ابن عباس – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قال: (جَـاءَ رجـلٌ إلى النبـي ﷺ، فَقَـالَ: إِنِّي أُحدثُ نفسِي بالأَمر، لأنَّ أكون حَمة أَحبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتكلـم بِـهِ، قَـالَ: «**الْحَمْـدُ للهِ الَّذِي رَدَّ أَمْرَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ**»)(٢).

إن هذا الخوف من التلفظ بهذه الوساوس، وعدم الإفصاح عـن طبيعتهـا يبـين مدى عمق إيمان الصـحابة، ويوضـح الطريقـة الـموفقة التـي اتبعهـا النبـي ﷺ في معالجتها، وتهوينها على النفوس الـمؤمنة بربها، فكانت هذه الـمعاجلة حماية لإيـمان الصحابة وتوجيهًا دائمًا لهذه الأمة على مدار تاريخها في رد وساوس الشيطان، وعدم الاستسلام لها.

وقد فهم الصحابة -رضوان الله عليهم- هذا التوجيه وهذا العلاج، حيث روى أبو داود عن أبي زميل، قال: سألت ابن عباس، فقلت: ما شيء أخفيـه في صـدري؟

---

(١) رواه مسلـم (١٣٢- ١٣٣) كتاب: الإيمان، باب: الوسوسة في الإيمان.

(٢) رواه أبو داود في «سننه» كتاب: الأدب، باب: رد الوسوسة ٢/ ٥٢.

قال: ما هو؟ قلت: والله لا أتكلم به، فقال أشيء من شك؟ وضحك. قال: ما نجا من ذلك أحد حتى أنزل الله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾[1]، قال: فقال لي: إذا وجدت في نفسك شيئًا فقل: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

قال الإمام الخطابي (ت٣٨٨هـ): (قوله ذاك صريح الإيمان، معناه أن صريح الإيمان هو الذي يمنعكم من قبول ما يلقيه الشيطان في أنفسكم، والتصديق به، حتى يصير ذلك وسوسة لا يتمكن في قلوبكم، ولا تطمئن إليه أنفسكم، وليس معناه أن الوسوسة نفسها صريح الإيمان، وذلك أنها إنما تتولد من فعل الشيطان، وتسويله، فكيف يكون إيمانًا صريحًا.

وقال الإمام النووي: (فقوله ﷺ: « **ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ**»، ومحض الإيمان معناه استعظام الكلام به هو صريح الإيمان، فإن استعظام هذا، وشدة الخوف منه، ومن النطق به، فضلاً عن اعتقاده، إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققًا، وانتفت عنه الريبة والشكوك... وقيل: إن الشيطان إنما يوسوس لمن أيس من إغوائه، فينكد عليه بالوسوسة، لعجزه عن إغوائه، وأما الكافر، فيأتيه من حيث شاء ولا يقتصر على الوسوسة، بل يتلاعب به كيف أراد فعلى معنى الحديث سبب الوسوسة محض الإيمان، أو الوسوسة علامة محض الإيمان.

ويجانب معالجة النبي ﷺ لوساوس الشيطان التي تعرض لها بعض الصحابة – رضوان الله عليهم–، وامتداحه ﷺ لإيمانهم، فقد حذرهم من الشبهات التي سيلقيها عليهم الشيطان، وجهلة الناس والملاحدة، والزنادقة، بسؤالهم عن الله سؤال الشاك المتعنت، فقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (« **لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ: هَذَا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ، فَمَنْ**

(١) يونس: ٩٤.

(٢) الحديد: ٣.

وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ»، وفي رواية: «قَالَ: يَـأْتِي الشَّـيْطَانُ أَحَـدَكُمْ، فَيَقُولُ: مَنْ خَلَـقَ السَّـمَاءَ؟ مَـنْ خَلَـقَ الْأَرْضَ؟ فَيَقُـولُ: اللهُ، ثُـمَّ ذَكَـرَ بِمِثْلِـهِ، وَزَادَ وَرُسُلِهِ»)[1].

وقد وجههم الرسول ﷺ إلى كيفية معالجة مثل هـذه الوسـاوس، فقـال: («يَـأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ، فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا وكَذَا، حَتَّى يَقُولَ مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَـإِذَا بَلَـغَ ذَلِكَ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ، وَلْيَنْتَهِ»)[2].

وبعد وفاته ﷺ حدث ما أنبأ به، فعن أبي هريـرة ﷺ قـال: بعـد أن ذكـر حـديث الوسوسة، وهو آخذ بيد رجل آخر (صدق الله ورسـوله، قـد سـألني اثنـان، وهـذا الثالث أو قال: سألني واحد، وهذا الثاني)[3].

وفي رواية عن أبي سلـمة قـال: (فبينـما أنـا في الـمسجد إذا جـاءت نـاس مـن الأعراب، فقالوا، يا أبا هريرة، هذا الله، فمـن خلـق الله؟ قـال: فأخـذ حصى بكفـه فرماهم؟ ثم قال: قوموا، صدق خليلي ﷺ)[4].

وأهمية هذه الـمعالجة تأتي من خلال ما قاله الإمام النووي عـن هـذه الأحاديـث إن معناها (الإعراض عن هذا الخاطر الباطـل، والالتجـاء إلى الله تعـالى في إذهابـه، وظـاهر الحديث أنه ﷺ أمرهم أن يدفعوا الخواطر بالإعراض عنها، والرد لها مـن غـير اسـتدلال ولا نظر في إبطالها، والذي يقال في هـذا الـمعنى أن الخـواطر عـلى قسـمين: فأمـا التـي ليست مستقرة، ولا اجتلبتها شبهة طرأت، فهي التي تدفع بالإعراض عنها، وعـلى هـذا يحمل الحديث وعلى مثلها ينطلق اسم الوسوسة، فكأنه لـما كان أمـرًا طارئًـا بغـير أصـل دفع بغير نظر في دليل لا أصل لـه ينظـر فيـه، وأمـا الخـواطر الـمستقرة التـي أوجبتهـا الشبهة، فإنها لا تدفع إلا بالاستدلال، والنظر في إبطالها والله أعلـم.

---

(١) رواه مسلـم (١٣٤) كتاب: الإيمان، باب: بيان الوسوسة في الإيمان.

(٢) رواه البخاري (٣٢٧٦) كتاب: بدء الخلق، باب: بيان الوسوسة في الإيمان.

(٣) رواه مسلـم (١٣٥) كتاب: الإيمان، باب: بيان الوسوسة في الإيمان.

(٤) رواه مسلـم (١٣٥) كتاب: الإيمان، باب: بيان الوسوسة في الإيمان.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وهذه الوسوسة هي مما يهجم على القلب بغير اختيار الإنسان، فإذا كرهه العبد ونفاه، كانت كراهيته صريح الإيمان، وقد خاف من خاف من الصحابة من العقوبة على ذلك، فقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[١]).

وبهذا يتبين لنا أن هذه الوساوس التي سبق الإشارة إليها نوع من التشكيك في وجود الله تعالى، وقد هو النبي ﷺ من شأنها، وأرجعها إلى تشكيك الشيطان، وإلى الجهلة من الناس، والأعراب، وكلمة الناس كلمة جامعة، ظهرت في الزنادقة، والملاحدة، على مر العصور، والأزمان، ومنهم الذين أوجدوا المقالات المبتدعة، وخاضوا في وجود الله، وأسمائه، وصفاته بغير علم، ولا هدى.

لقد كانت هذه التوجيهات النبوية، هي البلسم الشافي من كل الضلالات العقدية، وعندما ترك المتأخرون هذه التوجهات برزت إلى الوجود بدعهم العقدية الضالة، وقد كان الصحابة – رضوان الله عليهم- هم الجيل الصادق الذي حمل أمانة هذا الدين، ونافح عن المعتقد الحق، ولم يستسلم للوساوس الشيطانية الباطلة، وهذا يوضح لنا الفرق بين جيل الصحابة، والتابعين المخلصين، وبين من انحرف عن منهجهم، ورام الفهم عن غير طريقتهم[٢].

مطمسات ومنشطات الفطرة:

هذا الركام الهائل من الشهوات والشبهات الذي يندلق على قلب ابن آدم يحجبه شيئًا فشيئًا عن الفطرة حتى يغيبه تمامًا بل قد يفصله عن فطرته فينسى نفسه، ويغفل عن أصله، ويترك وظيفته التي خلق من أجلها فتتلقفه التعاسة ويلفه الشقاء، ويشرف على الهلاك ولا طريق له للخلاص إلا أن ينهض من هذا الركام، ويمزق تلك الحجب فتنشط فطرته ويعيش لهذا الدين القيم.

---

(١) البقرة: ٢٨٦.

(٢) انظر كتاب العقيدة الإسلامية ص ١٣- ٢٠.

قال تعـالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

وطمس البصائر وانتكاس الفطرة الذي أصاب الكثير من الناس، أصله الغفلة وسياق العهد الأول والـميثاق القديم الذي أخذه الله ﷻ على ابـن آدم لـما كـان في صلب أبيه.

أخرج البخاري ومسلـم عن أنس ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ، قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي**»(٢).

وعن أبي بن كعب ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾(٣).

فجمعهم له يومئذ جميعًا ما هو كائن منه إلى يوم القيامة فجعلهم في صورهم، ثم استنطقهم فتكلـموا وأخذ عليهم العهد الـميثاق وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى. الآية، قال: فإني أشهد عليكم السموات والسبع والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم أن تقولوا يوم القيامة لـم نعلـم بهذا، اعلـموا أنه لا إله غيري، ولا رب غيري ولا تشركوا بي شيئًا، وإني سأرسل إليكم رسلاً ليذكروكم عهدي وميثاقي وأنزل عليكم كتبي، قالوا: نشهد أنك ربنا وإلهنا لا رب غيرك، ولا إله غيرك، فأقروا له يومئذ بالطاعة ورفع أباهم آدم فنظر إليهم فرأى فيهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك، فقال: يا رب لو سويت بين عبادك، قال: إني

---

(١) الروم: ٣٠.

(٢) رواه أحمد في «مسنده» ٢٤/ ٣٨٧ (١١٤٨١).

(٣) الأعراف: ١٧٢.

أحببت أن أُشكر، ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة فهو الذي يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[١]، وهو الذي يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢]، ومن ذلك قال: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾[٣]، ومن ذلك قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[٤].

رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه، وابن أبي حاتم وابن جرير مروية، وفي رواية عن ابن عباس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قال: إن الله تعالى مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا وتكفل لهم بالرزق، ثم أعادهم في صلبه، فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفّى به نفعه الميثاق الأول، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقربه لم ينفعه الميثاق الأول.

وعن المواثيق الأولى يقول الشيخ حافظ بن أحمد حكمي - رحمه الله-: (فإن هذه المواثيق كلها ثابتة بالكتاب والسنة، الأول الميثاق الذي أخذه الله تعالى على حين أخرجهم من ظهر أبيهم آدم عليه السلام وأشهرُهم على أنفسهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[٥] الآيات. وهو الذي قاله جمهور المفسرين - رحمهم الله- في هذه الآيات، وهو نص الأحاديث الثابتة في الصحيحين وغيرهما.

---

(١) الأحزاب: ٧.
(٢) الروم: ٣٠.
(٣) النجم: ٥٦.
(٤) الأعراف: ١٠٢.
(٥) الأعراف: ١٧٢.

الـميثاق الثاني ميثاق الفطرة، وهو أنه تبارك وتعالى فطرهم شاهدين بما أخذه

الـميثاق الثاني ميثاق الفطرة، وهو أنه تبارك وتعالى فطرهم شاهدين بما أخذه عليهم في الـميثاق الأول كما قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، وهو الثابت في حديث أبي هريرة ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ»، ثم قال أبو هريرة ﷺ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[2][3].

الـميثاق الثالث هو ما جاءت به الرسل وأنزلـت بـه الكتـب تجديـدًا للـميثاق الأول، فإنه يقبل ذلك من أول مرة ولا يتوقف؛ لأنه جاء موافقًا لـما في فطرته، ومـا جبله الله عليه فيزداد بذلك يقينه ويقوي إيمانه فلا يتلعثم ولا يتردد، ومن أدركه وقد تغيرت فطرته عما جبله الله عليه من الإقـرار بـما ثبـت في الـميثاق الأول بـأن كـان قد؟؟؟ الشياطين عن دينه أو هوّده أبواه أو نصّراه أو مجّساه فهذا أن تداركه الله تعالى برحمته فرجع إلى فطرته وصدّق بما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب نفعه الـميثاق الأول والثاني.

وإن كذّب بهذا الـميثاق كان مكذبًا بالأول فلـم ينفعه إقراره به يوم أخذه الله عليه حيث قال: ﴿بَلَىٰ﴾ جوابًا لقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وقامت علي حجة الله وغلبت عليه الشقوة وحق عليه العذاب ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ

(١) الروم: ٣٠.

(٢) النساء: ١٦٥.

(٣) رواه البخاري (١٣٥٨) كتاب: الجنائز، باب: ما قيل في أولاد الـمشركين.

﴿ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾[١].

ومن لـم يدرك هذا الـميثاق بأن مات صغيرًا قبل التكليف مات على الـميثاق الأول على الفطرة، فإن كان من أولاد الـمسلـمين فهم مع آباءهم، وإن كان من أولاد الـمشركين فالله أعلـم بما كان عاملاً لو أدركه كما في الصحيحين عن ابن عباس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَوْلَادِ الـمشْرِكِينَ، فَقَالَ: «**فَقَالَ اللهُ إِذْ خَلَقَهُمْ أَعْلـم بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ**» وفيه عن أبي هريرة ﷺ قال: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ ذَرَارِيِّ الـمشْرِكِينَ، فقال: «**اللهُ أَعْلـم بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ**»[٢].

ومن مطمسات الفطرة السليمة بعد الغفلة، التقليد الأعمى والذي عليه أكثر الناس قال تعالى: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[٣].

هكذا تفعل الغفلة بالفطرة وكذلك التقليد يفعلان بها الأفاعيل فتنطمس وتنكس فيرُد الإنسان من أحسن تقويم إلى أسفل سافلين: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾[٤].

وعندما يرد الإنسان إلى أسفل سافلين يعيش التعاسة بكل معانيها ويحسها بكل آلاسها ومآسيها، ويتبلد حسه فلا يكاد يرى من حوله آيات الله العاملة في الكون وفي نفسه:

﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ

---

(١) الحج: ١٨.
(٢) «معارج القبول» ص٤١-٤٢.
(٣) الزخرف: ٢٢- ٢٤.
(٤) التين: ٤-٦.

بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾[1].

أسباب تبلد الحس عن الإنسان:

١- **تكرار المشهد**: إن الإنسان حين يمر بتجربة جديدة يكون متفتحًا لها بكل حواسه، فإذا رأى مشهدًا لأول مرة، أو سمع شيئًا جديدًا لأول مرة، أو ذهب إلى مدينة جديدة أو شارع أو مسكن جديد، فإنه يكون منتبهًا بكل حواسه، يريد أن يتعرف على تفصيلات الشيء الجديد، ويكون له في نفسه وقع بالغ لأنه جديد عليه. ولكنه حين يألف المشهد أو المكان، وتتكرر رؤيته له، فإن حواسه تمر عليه بغير انتباه كبير، بل قد تمر عليه بغير انتباه على الإطلاق!

وكذلك يفعل الإنسان أحيانًا مع الله! ينسى أنه الخالق وأنه المدبر وأنه الرازق وأنه المحيي والمميت!

ويمر بهذا الكون فلا يلتفت إلى شيء من الآيات فيه!

لا يلتفت إلى الشمس البازغة، ولا إلى النور حين يدبر ويبتلعه الظلام!

لا يلتفت إلى الزهرة الجميلة المعطرة البهيجة الألوان!

لا يلتفت إلى صوت الطائر الرقيق الذي يغني مرفرفًا بجناحيه فوق الغصن!

لا يلتفت إلى الماء الهاطل من السحاب، ولا إلى الرعد والبرق في السماء!

لا يلتفت إلى الطفل الذي ولد ولا الإنسان الذي مات!

لا يلتفت إلى عجزه المطلق إزاء قدرة الله!

٢- **أو يتبلد حسه أحيانًا لسبب آخر**؛ لأنه مشغول بطعامه وشرابه وشهواته، مشغول بمتاع الدنيا القريب، فيلهيه ذلك المتاع عن التدبر في آيات الكون والتقرب إلى

---

(١) فصلت: ٥٣- ٥٤.

خالق الكون والحياة، ويلهيه عن ذكر الآخرة وما فيها من حساب وعقاب.

٣- أو يتبلد حسه لأنه لا يريد أن يلتزم بأوامر الله، يريد أن يطغى في الأرض ويتبع هواه، يريد أن يتجاوز الحلال الذي أحله الله؛ لأن في نفسه شراهة لا تقنع بما أحله الله. أو يريد أن يسيطر على الآخرين ويستعبدهم لأهوائه فيعتدي على أموالهم، أو أعراضهم أو دمائهم بغير حق، ويريد أن يكون إلهًا في الأرض يطاع من دون الله.

٤- أو يتبلد حسه؛ لأن في نفسه كبرًا يستكبر به على عبادة الله.

٥- أو يتبلد حسه؛ لأنه مفتون بما بين يديه، مفتون بعقله أو بجسمه أو بماله أو بأي شيء مما حباه الله إياه، فيعتقد أنه من عند نفسه، وينسى أنه من عند الله!

يتبلد الحس وتمرض النفس لسبب من هذه الأسباب، أو لغيرها مما يلم بالنفس من انتكاسات وانحرافات، فتنسى الله النسيان كله، أو تشرك به سواه، وتتوهم أن أحدًا أو شيئًا ما في هذا الكون كله له شأن مع الله!

عندئذ لا يعود الإنسان كما خلقه الله على الفطرة السوية في أحسن تقويم، وإنما يصبح أسفل سافلين، فيتملكه الشيطان يصرف شئونه بعيدًا عن الهداية الربانية، وبعيدًا عن رضوان الله.

ولكن الله – من رحمته بعباده- لا يتركهم هكذا بغير هداية، بل يرسل إليهم الرسل يدعونهم إلى الهدى ويعيدونهم إلى الحق.

ولقد أرسل الله محمدًا ﷺ ليكون خاتم النبيين، ويكون بشيرًا ونذيرًا للناس كافة إلى يوم القيامة.وانزل عليه القران الكريم يهدي للتي هي أقوم ،وتكفل سبحانه بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾[1].

وجعله شاملاً لكل ما يرد الفطرة إلى سلامتها، وينفي عنها خبثها وأمراضها، ويدلها على حقيقة الإلوهية، ويعرفها بالله الحق، خالق الكون ومدبره، ومالك الأمر

---

(١) الحجر: ٩.

كله بغير شك[١].

وكما أن من مطمسات الفطرة الغفلة والتقليد فان من منشطاتها اليقظة والتجديد وهي التي يستثيرها القران في قلوب الـمؤمنين.

يقول محمد قطب حفظه الله في موضع أخر: (إذا تدبرنا القران الكريم-وبصفه خاصة ما يتناول العقيدة- نجد أن القران يستخدم وسائل شتى وأساليب متنوعة لتوضيح العقيدة السليمة وتصحيح الانحرافات التي يقع فيها الناس حين تستولي عليهم الجاهلية وتبعدهم عن الهدى الرباني،ثم لتثبيت هذه العقيدة وتعميق أثرها في النفس).

ومن هذه الوسائل:

١- **إثارة الوجدان لتدبر آيات الله في الكون**، وإزالة التبلد الذي يقع في حس الإنسان من الـمشاهد الـمكررة. وذلك يشمل الحديث عن الكون بضخامته الهائلة ودقته الـمعجزة، وظاهرة الـموت والحياة، وإجراء الرزق، وإجراء الأحداث، وقدرة الله التي لاتحد، وعلـم الله الشامل للغيب، كل ذلك بطريقة فذة تجعل الإنسان يستقبل هذه الأمور كلها كأنه يراها لأول مرة، فينفعل بها وجدانه، ويستيقظ لحقيقة الإلوهية.

٢- **إثارة العقل ليتفكر في خلق الله**، ليدرك أن لهذا الكون خالقًا، وأنه لا يمكن أن يكون له شريك في الخلق ولا في الرزق ولا في تدبير الأمر. وهذا يشمل كل الإشارات السابقة ولكن بطريق آخر غير إثارة الوجدان والانفعال. هو طريق التفكير والتدبر الـمنطقي. وإن كان يلاحظ أن الطريقتين كثيرًا ما تقترنان معًا في آيات كثيرة في آيات القرآن، فيخاطب الوجدان ويخاطب العقل في آن واحد.

٣- مواجهة الإنسان بحقيقة ما يدور في داخل نفسه وقت الشدة من اللجوء إلى

---

(١) «ركائز الإيمان» ص ١٩- ٢٠.

الله ونسيان الشركاء، ومن الغفلة والنسيان والبغي في الأرض بغير الحق بمجرد زوال الأزمة ونجاته من الخطر. وهي حقيقة كثيرًا ما ينساها الإنسان فيذكره القرآن بها ليصحح سلوكه نجاه الله، ويستقيم على العقيدة السليمة.

٤ - **مناقشة الانحرافات كلها التي يقع فيها الجاهليون تارة بالدليل العقلي وتارة بالدليل الوجداني**، ودحضها وبيان تفاهتها وعدم قيامها أي أساس صحيح. ونلاحظ هنا كذلك أنه كثيرًا ما يقترن الدليل العقلي بالدليل الوجداني في مناقشة الانحرافات.

٥- **التذكير الدائم بقدرة الله التي لا تحد**، وعظمته وجلاله حتى يخشع القلب ويستسلم لله.

٦- **التذكير الدائم بأن الله مع الإنسان يراه ويراقبه ثم يحاسبه يوم القيامة** على ما عمل من خير أو شر، وإشعار الإنسان بعلم الله الشامل الذي لا يغيب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا يخفى عليه من عمل الإنسان شيء حتى السر وما هو أخفى من السر.

٧- **التذكير الدائم بالله سبحانه وتعالى في حالتي السراء والضراء**، ففي السراء ينبغي على الإنسان أن يذكر الوهاب المنعم فيشكره، وفي الضراء يصبر الإنسان لقضاء الله ويتوجه إليه ليكشف عنه الضر.

٨- **إيراد القصص التي تثبت الإيمان**، يذكر الأنبياء وصبرهم على الأذى ونصر الله لهم في النهاية، والكفار وعنادهم وتدمير الله عليهم في النهاية.

٩- **رسم الصور المحببة للمؤمنين وصفاتهم** وما ينالهم من جزاء، والصور الكريهة المنفرة للكافرين وما ينالهم من جزاء[1].

والمصائب والابتلاءات بمثابة المبرد الذي يبدد الغشاوات المتراكمة على

---

(١) «ركائز الإيمان» ص٢١ - ٢٢.

الأبصار، ويحطم الحجب الجاثمة على فطرة الإنسان، فإن ساعات العافية والرخاء تنيسي ابن آدم نفسه، وإن الغنى والـملك يطغيه ويحجبه عن رؤية نفسه على حقيقتها، فإذا ما تعرى الإنسان عن ماله، وعن ملكه، وبعد عن أهله وعشريته، حينئذ تختفي الهالات الكاذبة، وينكمش الزهو الـمزيف فتنجلي الفطرة وتظهر النفس على حقيقتها، فلا يجد الإنسان إلا الذي فطره أول مرة، فيدعوه ويستنجده ويستدفع به الضر والسوء.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾[١].

وكم تكررت هذه الحقيقة في كتاب ربنا ﷻ بأساليب جذابة أخاذة للروح والقلب والعقل، وبسرد معجز لا يملك الإنسان أمامه إلا أن يقول أنت أنت الله.

***

(١) الإسراء: ٦٧- ٦٩.

(٦)

الله... والأدلة العقلية

أدلة الفطرة السابقة لا تجري على الإنسان وحده، بل تتعداه إلى جميع المخلوقات من حيوان ونبات وجماد، فالله ﷻ الذي خلق الإنسان وذرأ الحيوان والنبات وبرأ الجماد من أرض وسماء وجبال وبحار، فالكل مجبول على معرفة خالقه وبارئه وفاطره أول مرة، إلا أن الكفر والإلحاد لا يعرفه إلا الإنسان أما غيره من المخلوقات فلا تعرف للكفر طريقًا، إنما طريقها التسبيح بحمد خالقها والسجود لعظمته.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[1].

﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾[2].

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾[3].

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾[4].

﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ

---

(١) الإسراء: ٤٤.
(٢) ص: ١٨-١٩.
(٣) سبأ: ١٠.
(٤) الحج: ١٨.

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[١].

ومن أبرز ما تميز به الإنسان العقل والنطق فهو عاقل وهو متكلم وهو خصيم مبين أي أُوتي جدلاً وبيانًا وقد أشار القرآن إلى ذلك.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[٤].

أما وسائل التعلم عند الإنسان فهي السمع والبصر والفؤاد وهي التي يسأل عنها قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً﴾[٥].

وكم من آيات القرآن التي تحس الإنسان أن يستخدم هذه الوسائل ويعملها فيما حوله من عالم الشهادة: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[٦].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[٧].

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[٨].

---

(١) الإسراء: ٧٠.
(٢) الكهف: ٥٤.
(٣) يس: ٧٧.
(٤) الرحمن: ١ – ٤.
(٥) الإسراء: ٣٦.
(٦) يونس: ١٠١.
(٧) الحج: ٤٦.
(٨) ق: ٦.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾(١).

وكذلك يستخدم هذه الوسائل التعليمية فيما وراءه من عالم الغيب ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾(٢).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٣).

وما أكثر الأدلة النقلية الشرعية من الكتاب والسنة التي تبرهن على عظمة الخالق الذي لا يستحق العبادة غيره ولا تصرف إلا له وهذه هي طريقة أهل الإيمان للاستدلال على الواحد الأحد الفرد الصمد أما غيرهم من أهل الإعراض والشرور فليس لهم إلا الأدلة العقلية؛ لأنهم لا يؤمنون بما أنزل الله فهؤلاء لا يتركهم الله ﷻ هملاً بإسرافهم في الإعراض والصد إنما يكرر إليهم الدعوة إلى استخدام الفكر والعقل والتدبر: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾(٤).

لا يتركهم القرآن بسبب إسرافهم وإعراضهم إنما يوجه إليهم الدعوة تلو الأخرى حتى يدخل في دين الله مَن كُتبت له الهداية وحتى يدمغ بالحجة من أعرض وكفر.

ولعقل الإنسان بداهات ليس بوسعه أن يعترض عليها، وله أبجديات وأوليات لا يستطيع أن يتنصل منها فالكل أكبر من الجزء، والواحد نصف الاثنين، والرجل غير المرأة فهذه أحكام العقل الضرورية التي تدرك بغير تأمل ولا نظر ولا استدلال.

تخيل مثلاً لو كان هناك مجموعة من الملاحدة يمشون في صحراء جرداء لا

---

(١) الغاشية: ١٧.

(٢) يس: ٧٨.

(٣) الروم: ٢٧.

(٤) الزخرف: ٥.

زرع بها ولا ماء وبينما هم في طريقهم إذا في وسط الصحراء قصر مشيد به من كل أنواع الكمالات التي تطيقها عقولهم وحول هذا القصر بستان به من كل أنواع الثمار والفواكه والخضرة العجيبة في تناسق بديع، فهل يقبل عقل هؤلاء الملاحدة أن يكون هذا القصر المشيد وهذا البستان العجيب قد وجدا صدفة بلا منشأ لهما؟! كلا. بل من ادعى هذا القول يسخر منه الملاحدة أنفسهم!

وهذا ما فعله الإمام أبو حنيفة النعمان – رحمه الله- مع الزنادقة: لما جاؤه يجادلوه في وجود الله سبحانه وتعالى، فقال لهم: دعوني فإني مفكر في أمر قد أخبرت عنه، ذكروا أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تخلص منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد، فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل، فقال: ويحكم!!

هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع؟ فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه.

تأمل في رياض الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأحداق هي الذهب السبيك
على قضيب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

وقال آخر:

فيا عجبًا كيف يعصي الإله أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وقال الحكيم قس بن ساعدة الإيادي وكان من الموحدين على ملة إبراهيم

عليه السلام مستدلاً منشأة العالـم العلوي والسفلي على بـارئهما ومبدعهما ومنشئهما وفاطرهما.

مطر ونبات، وأحياء وأموات، ليـل داج، وسماء ذات أبـراج، ونجـوم تزهـر، وبحار تزجر، وضوء وظلام، وليـل وأيـام، وبـرد آثـام إن في السماء خـبرًا، وإن في الأرض عبرا، يحار فيهن البصر، مهاد موضع وسقف مرفوع، ونجوم تغور، وبحـار لا تفور.

وقال أيضًا: (شرق وغرب، وسلم وحرب، ويابس ورطب، وأجاج وعذب وشموس وأقمار، ورياح وأمطار، وليل ونهار، وإناث وذكور، وبرارٍ وبحور، وحب ونبات، وآباء وأمهات، وجمع وشتات، وآيات في إثرها آيات...)[1].

إن دليل نشأة العالـم العلوي والسفلي ونشأة الإنسان لا يحتاج معه دليل لـمجادلة أعتى الـملحدين وأكابر الـمجرمين، فأكثر الأدلة النقلية القرآنية تدور حول دليل النشأة والخلق. أختار من بينها موضعين في كتاب الله عز وجل:

الأول: قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[2].

وقد سبقت الإشارة إليه، فإنه يضع الإنسان أمام ثلاثة خيارات لا رابع لها:

الاحتمال الأول: أنه خلق من غير شيء! هكذا ولدته الطبيعة!! وخرج من لب الصخرة!!

وأبعد منه الاحتمال الثاني: ﴿هُمُ الْخَالِقُونَ﴾.

فلا مهرب للعقل إذن إلا أن يسلم أن الله العظيم هو الذي خلقه في أحسن تقويم.

أما الـموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن

---

(١) باختصار «معارج القبول» ص٦٠ بتصرف.

(٢) الطور: ٣٥.

نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[1].

فيها الشرح المفصل لنشأة جنس الإنسان على هذه الأرض، ويستحيل أن يجد العقل السليم تفسيرًا لنشأة الإنسان في غير هذا الاحتمال فهل الطبيعة الصماء قادرة على خلق الإنسان العاقل الناطق؟!

هل يمكن أن تبدأ نشأة الإنسان بوجود طفل؟!

هل يمكن أن تبدأ النشأة بوجود طفل وطفلة؟!

ولك أن تسأل وتتساءل في نشأة الإنسان، فليس أمام العقل السليم إلا احتمالاً واحدًا وهو أن تبدأ النشأة برجل سليم وامرأة سليمة ثم مقومات حياتهما من طعام وشراب وغيرهما من مقومات الحياة، فليس ثمة مهرب ولا منفذ للعقل إلا أن الله سبحانه وتعالى قد منّ على الرجل الأول (آدم) والمرأة الأولى (حواء) بنعمتي (الإيجاد والإمداد حتى يبث منهما رجالاً كثيرًا ونساء ولما كان ليس ثم مهرب للعقل من هذا الدليل؛ اخترع أساطين الملاحدة ومنظروا الزنادقة نظريات، وقعَّدوا القواعد وزيفوا الحقائق وهندسوا نظرية (النشوء والارتقاء).

لتدعيم باطلهم وصبغته بالصبغة العلمية، واليهود وراء كل جحود؟! ولكن الذي يثير العجب أن نظرية النشوء والارتقاء مازالت إلى يومنا هذا تدرج في مناهج التعليم في الكثير من بلاد المسلمين.

رغم أنها وئدت في مهدها وتم تكذيبها وكشف زيفها في بلادها (أوربا) فهل وراء ذلك أيدي خفية تعبث بعقول المسلمين؟!

وملخص هذه النظرية الهزلية أن أصل المخلوقات حيوان صغير من ذرات الخلية الواحدة نشأ من الماء، ثم أخذت البيئة تفرض عليه من التغيرات في تكوينه

---

(١) سورة النساء: ١.

مما أدى إلى نشوء صفات جديدة في هذا الكائن، أخذت هـذه الصـفات الـمكتسبة تورث في الأبناء حتى تحول مجموع هذه الصفات الصغيرة الناشئة مـن البيئـة عـبر ملايين السنين إلى نشوء صفات كثير راقية جعلت ذلك الـمخلوق البـدائي مخلوقًـا أرقى، واستمر ذلك النشوء للصفات بفعل البيئة والارتقاء في الـمخلوقات، حتـى وصل إلى هذه الـمخلوقات التي انتهت بالإنسان.

وأساس هذه النظرية يقوم على ما يزعمونه بقانون (البقاء للأصلح).

أي أن عوامل الفناء تهلك الكائنات الضعيفة ولا يبقى إلا الكائن القوي الـذي يورث صفاته القوية لذريته، وتتجمع هذه الصفات القوية مع مرور الـزمن مكونـة صفة جديدة في الكائن وذلك هو (النشوء).

الذي يجعل الكائن يرتقي بتلك الصفات الناشئة إلى كائن أعلى، وهكذا يستمد التطور، وذلك هو (الارتقاء).

(إن هذا الـمبدأ أطلقه (دارون) (البقاء أصلح) قـد دمـر الحيـاة البشريـة؛ لأنـه أعطى الـمسوغ لكل ظالـم فردًا كان أو حكومة؛ لأن الظالـم وهـو يـمارس غضبه وظلـمه وحربه ومكره لا يمارس رذائل خلقية، إنما هـو يـمارس قانونًـا مـن قـوانين الفطرة كما زعم دارون، إنه يمارس قانون (البقاء للأصلح) وذلك الزعم هـو الـذي أعطى حركة الاستعمار كل بشاعتها)[1].

ولكن أين هذه النظرية من واقع التـاريخ الـبشري، فهـل سـمعت أو قـرأت في التاريخ الغابر أو الـمعاصر أن هناك حيوانًا تحول إلى إنسـان عـن طريـق التطـور أو إنسانًا جاء إلى هذه الأرض بغير التناسل، وإذا كان التطور يحتاج إلى زمن طويل كـما يزعمون، فذلك لا يمنع من مشاهدة قـرود تتحـول إلى آدميـين في صـورة دفعـات متوالية يقول: (نشل) و(دلاس) وهما من علـماء الطبيعية الأفذاذ.

---

(١) «الرد على الدهريين» لجمال الدين الأفغاني نقلاً من كتاب «العقيدة في الله» ص٩٨.

(إن الارتقاء بالانتخاب الطبيعي لا يصدق على الإنسان، ولابد من القول بخلقه رأسًا). فسبحان من أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين، سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا.

ومن علماء التاريخ الطبيعي الذين دحضوا هذه النظرية الأثيمة.

[(فرخو) قال: (إنه يتبين لنا من الواقع أن بين الإنسان والقرد فرقًا بعيدًا، فلا يمكننا أن نحكم بأن الإنسان سلالة قرد أو غيره من البهائم، ولا يحسن أن نتفوه بذلك).

ومنهم (ميفرت): (إن مذهب دارون لا يمكن تأييده وإنه من آراء الصبيان][1] فدليل النشأة هو دليل واحد من أدلة العقل التي يثيرها.

القرآن للتبصرة والتذكرة فضلاً عن قانون العلة والوجوب والحدوث والنظام وقانون العناية بالإنسان وغيرها من الأدلة العقلية التي لا حصر لها.

والتي ليس هذا مجال ذكرها إنما تنتقل إلى الأدلة الشرعية فإليك طريقة القرآن في التعريف بالرحمن.

* * *

---

(١) «العقيدة في الله» ص١٠٢.

(٧)

طريقة القرآن في التعريف بالرحمن

(الأدلة النقلية رائدة والأدلة العقلية تابعة)

ليس هناك طريق أقيم ولا أقوم من طريقة القرآن في التعريف بالرحمن.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[١].

ففي بداية هذا الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه دليل الله ﷻ على إثبات الصانع وتوحيده بخمسة أنواع من الدلائل في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢].

أولها: أنه تعالى استدل على التوحيد بنفسك التي بين جنبيك والتي هي أقرب الأقربين إليك وذلك بقوله: ﴿رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾.

وثانيها: بأحوال الآباء والأجداد وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

وثالثها: بأحوال الأرض في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾.

ورابعها: بأحوال السماء في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾.

وخامسها: بالأحوال الحادثة المتعلقة والأرض وذلك بقوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾.

---

(١) الإسراء: ٩.

(٢) البقرة: ٢١- ٢٢.

فـما أشـبه السـماء بـالأب والأرض بـالأم وللـزروع وللـثمار بالذريـة والأولاد، فالاستدلال بالنفس مقدمًا على جميع الاستدلالات؛ لأن الإطـلاع كـل أحـد عـلى نفسه أتم من إطلاعه على أحوال غيره، فيجد بالضرورة من نفسـه أنـه تـارة يكـون مريضًا وتارة صحيحًا، وتارة متلذذًا وتارة متألـما، ثم الأطـوار الـذي يمـر بهـا مـن الـمهد إلى اللحد طفلاً – شابًا – كهلاً – شيخًا، والانتقال من بعض هذه الصـفات إلى غيرها ليس باختياره ولا باختيار أحد، فكثيرًا ما يجتهد في طلـب شيء فـلا يجـد، وكثيرا ما يكون غافلاً عنه فيحصل، وعند ذلك يعلـم كل أحد عند نقـض العـزائم وفسخ الهمم أنه لابد من مدبر يكون تدبيره فوق تدبير البشر وربـما اجتهـد العاقـل الذكي فلا يجد بينما يتسير ذلك للغر الغبي.

ومن الدليل على القضاء وكونه

ومــن الــدليل علــى القضــاء وكونــه

بؤس اللبيـب وطيـب عـيش الأحمـق

وبالجملة فلـما كان إطلاع كل امرئ على أحوال نفسه أشد من أطلاعه على أحوال غيره قدِّم هذا الدليل على سائر الدلائل على سائر الدلائل، ثم اتبع بالدليل الذي يليه وهو علـم كل واحد بأحوال آبائه وأجداده وأهل بلده، ثم هذه الـمرتبة الثانية يتلوها مرتبة ثالثة وهي علـم الإنسان بأحوال الأرض التي هي مسكن الخلائق، فهي ذات تضاريس متباينة ومواضع مختلفة، قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[1].

وقال تعـالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا

(١) الرعد: ٤.

أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[1].

ثم هذه المرتبة الثالثة يتلوها مرتبة رابعة وهي العلم بأحوال الأفلاك، فإن بعضها يخالف البعض في العلو والسفل، والصغر والكبر، والبطؤ والسرعة، والنور والظلمة قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[2].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[3].

﴿أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[4].

وبعد هذه المرتبة، مرتبة خامسة، وهي الأحوال المنزلة من السماء والأرض وهي نزول المطر من صلب السماء ووقوعه في رحم الأرض، ثم بعد ذلك يحدث في الأرض الواحدة أنواع من النبات يخالف كل منها صاحبة في اللون والشكل والطعم والطبع والخاصية، فمنه ما يكون قوتًا، ومنه ما يكون إدامًا، ومنه ما يكون فاكهة، ومنه ما يكون دواء، ومنه ما يكون سمًا، ومنه ما يكون علفًا لسائر الحيوانات.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ

---

(١) فاطر: ٢٧.
(٢) يس: ٤٠.
(٣) الفرقان: ٦١.
(٤) نوح: ١٥-١٦.
(٥) عبس: ٢٥- ٣٢.

ﭐلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ۝ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾(١).

بل إذا نظرت إلى ورقة واحدة من أوراق الورد وجـدت أحـد وجهيهـا في غايـة الحمرة والوجه الآخر في غاية الصفرة! فسبحان من خلق فسوى ومن صـنع فأبـدع فانظر أخي الكريم إلى طريقة القرآن في ترتيب الأدلة واتباع بعضـها بعضًـا، فـإن في ذلك حكمًا بالغة فسبحان من لا نهاية لعلـمه ولا غاية لحكمته(٢).

طريقة العقل وطريقة الوحي في الميزان

لطالـما خاض الإنسان بفكره واعتمد على عقله في مسألة نشـأة العقيـدة الإلهيـة وتاريخ الأديان كيف ومتى؟! ولكن هيهات هيهات أن يفلـح العقـل وحـده بعيـدًا عن الرسل الكرام وبعيدًا عن القرآن!

إنما قد خاض الإنسان بالفعل هذه التجربة بنفسه وقعّد لها القواعـد، ونظّـر لهـا النظريات، وسلك في سبيل معرفة نشأة العقيدة الإلهية مذاهب شتى، نزكرهـا عـلى سبيل الإجمال لا التفصيل ما يلي(٣):-

«المذاهب الكونية أو الطبيعية»

يرى أصحاب هذا الـمذهب أن العامل الأول في إثارة الفكرة الدينية كـان هـو النظر في مشاهد الطبيعة سواء كان في الحالة العادية كالنظر إلى السماء ومـا فيهـا مـن نجوم وكواكب أو النظر إلى الأرض وما تحوى من جبـال وبحـار وأنهـار، وحيـوان ونبات وإنسان ذلك أن التأمل في هذا الـمجال غير الـمتناهي يجعل الإنسان يشـعر بأنه محوط من كل جانب بقوة ساحقة غلابة، قوة مستقلة عـن إرادة الـبشر، يخضـع الجميع لتأثيرها، ولا قدرة لهم على تحويل سيرها أو تعديل نظامها، فيجتمع لـه مـن

---

(١) طه: ٥٣- ٥٥.

(٢) انظر: «أسرار التنزيل» ص٢٥ بتصرف.

(٣) انظر كتاب «الدين» محمد عبدالله رراز.

ذلك شعور مؤلف من دهشة وإعجاب يرى به الكون أشبه شيء بالـمعجزة.

فتخيل معي أخي الكريم بيتًا منسق البنيان، فاخر الأثاث والرياش، قائمًا على جبل مرتفع تكتنفه غابة كثيفة... وتخيل أن رجلاً جاء إلى هذا البيت فلم يجد فيه ولا حوله ديارًا ولا نافخ نار... فحدثته نفسه بأنه عسى أن تكون صخور الجبل قد تناثر بعضها ثم تجّمع ما تناثر فيها ليأخذ شكل هذا القصر البديع، بما فيه من مخادع ومقاصير، وأبهاء ومرافق، وأن تكون أشجار الغابة قد تشققت بنفسها ألواحًا، وتركبت أبوابًا وسررًا، ومقاعد ومناضد، ثم أخذ كل منها مكانه فيه، وأن تكون خيوط النبات، وأصواف الحيوان وأوباره، قد تحولت بنفسها أنسجة موشاة، ثم تقطعت طنافس، ووثائر، وزرابي، فانبثت في حجراته، واستقرت على أرائكه، وأن الـمصابيح جعلت تهوى إليه بنفسها من كل مكان، فنشبت في سقفه زرافات ووحدانا... ألست تحكم بأن هذا حلم نائم، أو حديث خرافة قد أصيب صاحبه بأختلاط في عقله؟ فما ظنك بقصر السماء سقفه والأرض قراره، والجبال أعمدته، والنبات زينته، والشمس والقمر والنجوم مصابيحه؟ أيكون في حكم العقل أهون شأنًا من ذلك البيت الصغير؟ أو لا يكون أحق بلغت النظر إلى بارئي مصور، حي قيوم، خلق فسوى وقدر فهدى؟

هذا بالنسبة للنظر إلى الطبيعة والكون في حالته العادية، أما النظر إليه في حالته الشاذة العنيفة فأمر آخر يثير الرهبة في قلب الإنسان فيبحث عن مهرب ومنجا وملجأ كما أن النظر إلى الطبيعة في الحالة العادية يثير الرغبة في قلب الإنسان ليبحث عمن وراء هذا الكون البديع!

يقول العالـم الإنجليزي «جيفونس» في كتابه «الـمدخل إلى تاريخ الديانات» إن الظواهر العادية لا تكفي في إيقاظ هذه الفكرة لأنها لتكرار عرضها على الحواس تألفها النفس فلا تحتاج إلى التماس تفسيرها، أما الحوادث الأرضية الـمفاجأة، والعوارض السماوية النادرة كالتي يضطرب بها النظام العادي كالبرق والرعد

والعواصف والصواعق والخسوف والكسوف والطوفان والزلازل، فإن تأثيرها على المشاعر كتأثير دق الجرس، في تنبيه الغافل وإيقاظ الوسنان، ذلك أنه قد ارتكز في الغرائز البشرية والحيوانية أيضًا استحالة أن يحدث شيء من لا شيء فكان من الطبيعي أن هذه الحوادث الفجائية الرهيبة تزعج من يشهدها، وتحفزه إلى السؤال عن مصدرها، وإذا كان لا يرى لها سببًا ظاهرًا، اضطر عقليًا أن ينسبها إلى سبب خفي ذي قوة هائلة إذ لا مخرج للعقل من هذه القسمة الثنائية.

«المذاهب الروحية»

إن كان أصحاب المذهب السابق قد استمدوا فكرتهم من عالم الشهادة المحسوس فإن أصحاب هذا المذهب يستمدون فكرتهم من عالم الغيب المجهول، والتاريخ الإنساني حافل بأصحاب هذا المذهب فمنهم من عبد الملائكة ومنهم من يعبدون الجن قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١] وقد حذر الله تعالى الإنسان من عبادة الشيطان.

قال تعالى: ﴿أَلَم أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠] وترتكز نظرية أصحاب هذا المذهب على أمرين.

١- أن في الوجود كائنات عاقلة لا يقع عليها الحس؛ سواء كانت في الأصل أرواحًا إنسانية انتقلت عن أبدانها، أم كانت منذ بدايتها أرواحًا مستقلة كالجن والملائكة، أم كانت روحًا أعلى من ذلك وأسمى.

٢- أن هذه الكائنات الغيبية، المزودة بتلك القوى الخارقة، قد تتصل بعالم النفس أو عالم الحس من الحياة الإنسانية وتترك فيه أثرًا من آثارها العجيبة.

المذاهب النفسية:

هذه فصيلة أخرى من النظريات، تتلخص فكرتها العامة في أنه لأجل الوصول إلى العقيدة الإلهية لم يكن بالناس حاجة إلى التأمل في الطبيعة وجمالها، ولا في

التقلبات الكونية وأهوالها، ولا إلى التجارب العجيبة في عالم الأرواح وأسرارها؛ بل إن تجارب الإنسان النفسية، في حياته العادية المألوفة له في كل يوم، كانت كافية لتوجيه نظره بقوة إلى تلك الحقيقة العليا.

وعالم النفس الإنسانية الداخلي محاط بالأسرار، ومكتنف بالغموض، كالعالم الخارجي المحيط بالنفس والمليء بالأسرار سواء بسواء وغالبًا ما يتصادم عالم النفس الداخلي المتمثل في الرغبة والإرادة والعالم الخارجي الحافل بكل ما يشتهيه النفس وتلذ به العين.

وحياتنا النفسية قائمة في جوهرها على حركتين متعاكستين:

إحداهما تتجه من الخارج إلى الداخل (من المحيط إلى المركز)؛ والأخرى من الداخل إلى الخارج (من المركز إلى المحيط). فالحركة الأولى تمثل تأثير الأشياء على النفس بواسطة الإحساس (وتلك هي حال انفعال النفس وقابليتها) والحركة الثانية تمثل مجاوبة النفس على الأشياء عن طريق الإرادة (وهذه هي حالة تأثير النفس وفاعليتها) بيد أن هاتين الحركتين لا تنطبقان تمام الانطباق وليس بينهما كمال تناسق وتجاوب. ذلك أن الحساسية تسحق الرغبة والإرادة وتكبتها، فكلما اندفعت موجة الحركة الإرادية من داخل النفس، وارتطمت على صخرة الأشياء الخارجية فانكسرت عليها، رجعت كئيبة مبتئسة، وهذه الصدمات للمتوالية، وتلك المنازعات المستمرة، بين النفس وبين العالم الخارجي، هما السبب الأول لكل أنواع الآلام، ولكنها في الوقت نفسه هي منبع النور، ومصدر الشعور. ذلك أن ارتداد الموجة إلى مركزها يولّد في هذا المركز حرارة تشبه الحرارة الناشئة من حركة العجلة على محورها، ثم لا تلبث هذه الحرارة أن تبعث شرارة ضوئية تضيء جوانب الوجدان.

وهذا هو ديكارت الفيلسوف الفرنسي المشهور يبرهن على أن عقيدة وجود الله تعتمد على تجربة نفسية، أقرب من هذه التجارب كلها، وأقل تعقيدًا؛ حتى أن

الذي يغمض عينيه، ويسد أذنيه، ويقطع علاقته بالكون وبالناس، ثـم ينطـوي عـلى نفسه، ويتحسس أفكاره وتصوراته، يجد مفتاح هذه العقيدة حاضرًا فيها بين طيـات نفسه، كلـما شعر بالفرق بين الشك واليقين، أو بين الجهل والعلـم، وبالجملة كلـما قرأ في لوحة نقصه عنوان: «الكمال» الذي ليس له.

ليست فكرة «الكمال» هذه في نظر (ديكارت) فكرة مستنبطة من فكـرة أخـرى، وإنما هي حقيقة أولية فطرية، بل هي أسبق في العقل من فكرة الـنقص؛ فـإن مـن لا يعرف الشيء لا يتفقده، ولا يحس بحرمانه حين يفقده؛ إذ كيف أعرف أنني نـاقص لو لـم تكن عندي فكرة كائن أكمل مني أجعله مقياسًا أعرف بـه مواضـع نـقصي؟ فالرغبة في الكمال وحدها دليل على أسبقية وجـود هـدفها في التصـور العقـلي. ثـم ليست هذه الفكرة معنى سلبيًا (كالسكون: عدم الحركة؛ وكالظلام: عدم النور) بل هي جماع الحقائق الإيجابية، ونظام ضروب الكمالات كلها.

من أين تجئ هذه الفكرة إذًا؟

لا جائز أن يكون من هاوية العدم مطلعها؛ فإن العدم لا يخلق الوجـود، كـما أن الصفر لا يلد عددًا إيجابيًا.

ولا جائز أن يكون من قرارة النفس منبعها؛ فهذه الـنفس هـي مصـدر الـنقص الذي أحاول التخلص منه.

ولا يقال إن الكمال الذي لـم أحرزه بالفعـل هـو حاصـل عنـدي بـالقوة، وأنـا دائب في سبيل اكتسابه، بالترقي في مراتبه تدريجيًا، وهذه النزعة إليه هي التي أنشأت فكرته في نفسي. فذلك فرض باطل من وجهين: (أولهما) أن هذه الفكرة لا تصور في نفسي درجات الكمال التي سأنالها أو التي يمكنني نيلها فحسب؛ بل إن كـل درجـة من الكمال أتصورها في نفسي أو في غيري، أتصور دائمًا فوقها درجـة أعـلى منهـا... (وثانيها) أن فكرة الكمال الأعلى التي أجدها في نفسي تحتوي كـل درجـات الكـمال الوجودي الفعلي، الذي لا شيء منه بالقوة الإمكانية القـاصرة؛ وإلا لـم يكـن هـو

المثل الأعلى، ولما أمكن وجود شي من الكمالات الجزئية بالفعل؛ لأن ما هو بالقوة والإمكان فحسب لا يمكن أن يحدث ما هو بالفعل في حقيقته الإيجابية الظاهرة الباهرة، فإن فاقد الشيء لا يعطيه غيره.

وأخيرًا، ليست هذه الفكرة اختراعًا وفرضًا افترضه خيالي، بل هي ضرورة تفرض نفسها على عقلي وعلى كل العقول.

فلم يبق إلا أن تكون صورة منعكسة على مرآة النفس من حقيقة إيجابية، وذات خارجية، هي مادة الكمال المطلق ومصدره، وهي المثل الأعلى. وما وضع هذه الصورة على لوحة نفسي إلا كوضع «سمة الصانع» على صنعته. أو «توقيع الكاتب» في رأس رسالته.

«المذهب الأخلاقي»

يرى أصحاب هذا المذهب أن وجود الذات الإلهية ليس موضوع علم ومعرفة بحيث يثبت بالرهان أو بالتجربة؛ بل هو موضوع إيمان عقلي، بمعنى أنه مقدمة مسلمة، لا مناص للعقل من أن يعتمدها لتصحيح فكرة الأخلاق الراسخة في النفوس. ويمكن اختصار هذا المذهب فيما يلي:

١- أن كل إنسان، حتى الطفل المميز، يجد في نفسه استحسانًا لبعض الأفعال، واستهجانًا لبعضها، ويدرك بنفسه أن بعضها يجب أن يفعل وبعضها يجب أن يجتنب، فهذا القانون الأخلاقي النابع من داخل النفس يعارضه قانون الطبيعة (دنيا الناس) المتسلط على حواسنا وجوارحنا وإرادتنا بصفة قاهرة. ومنه نعلم أن الإنسان ينتسب إلى عالمين: عالم العقل وعالم الطبيعة والحس، كلاهما يطالبنا بحاجته، وما القانون الأخلاقي إلا ترجمان العقل الخالص؛ ينطق بلسانه متجاهلاً وللطبيعة من سلطان.

٢- دعوى أن الإنسان يمكنه في هذه الدنيا أن يصل إلى القدسية والفضيلة الكاملة دعوى باطلة.

٣- مع افتراض أننا حققنا «الخير الـمطلق» بتحصيل الفضيلة الكاملة، فقد بقى الـمطلب الأخير من مطالب العقل، وهو تحقيق «الخير الأعلى» وليس الخير الأعـلى معنى مفردًا، بل هو جماع عنصرين: أحدهما الفضيلة والآخـر السـعادة، التـي هـي حصول الـمرء على ما يرضيه في الحياة، بحيث يجري كل شيء في الوجود عـلى وفـق ما يهواه. ألا وإننا نرى هذين العنصرين يسيران أمامنـا في طـريقين منفصـلين قلـما يلتقيان. فقلـما تعـيش الفضـيلة العاملـة الكادحـة، الصـامتة القانعـة، إلا في زوايـا الخمول والنسيان، والتقتير والحرمان، بينما الرذيلة الصاخبة الـمتبجحة الطامحة، لها القوة والثروة، ورغد العيش، والجـاه، والنفـوذ والسـلطان. لكـن مقـتضى الوضـع العقلي السليم أن تكون الفضيلة والسعادة صـنوين، والرزيلـة والشـقاء تـوأمين[١]، وأن توزع درجات البؤس والنعيم على حسب الأعمال وبواعثها ومقاصدها، فلابـد من مبدأ أعلى يحقق هذا التوازن، مبدأ تخضع الطبيعة لإرادته، ويسر هو في تصرفاتـه على وفق قانون عادل، وما ذلك إلا خالق الطبيعة والإنسان جميعًا، وهو الله تعالى.

فكان وجود الله هو الـمطلب الأخير، الذي لابد من تسليمه لتصحيح معقوليـة القانون الأخلاقي.

«الـمذهب التعليمي أو مذهب الوحي»:

تشترك الـمذاهب الـمتقدمة كلها في أن العقيـدة الإلهيـة وصـل إليهـا الإنسـان بنفسه عن طريق عوامل إنسانية (سواء كانت ملاحظـات وتـأملات فرديـة أن مـن جنس التأثيرات والضرورات الاجتماعية اللاشعورية).

في الطرق الـمقابل لهذه النظريات كلها يقرر الـمذهب التعليمي أن الأديان لـم يسر إليها الإنسان، بل هي سارت إليه، وأنه لـم يصعد إليها، بـل نزلـت عليـه، وأن الناس لـم يعرفوا ربهم بنور العقل، بل بنور الوحي. (لاشك أن الجمـع بيـنهما نـور على نور، فإن العقل الصريح لا يتعارض مع النقل الصحيح)فهذه الكتب السـماوية

(١) انظر «القلادة في علاقة الإيمان بالسعادة» للرد على هذه الأفكار.

تقرر أن الله لـما خلق أبا البشر كرّمه وعلـمه حقائق الأشياء، وكان فيها علـمه، أنـه خالق السموات والأرض وما فيهما، وأنـه هـو خـالق النـاس ورازقهـم، وأنـه هـو مولاهم الذي يجب طاعته وعبادته، وأنه سيعيدهم إليه تارة أخرى ويحاسبهم عـلى ما قدموا، ثم أمره أن يورث علـم هذه الحقيقة لذريته ففعل، وكانـت هـذه العقيـدة ميراث الإنسانية عن الإنسان الأول. نعم إن الناس لـم يكونوا كلهـم أوفيـاء بهـذه الوصية الـمقدسة، بل إن أكثرهم وقـع في الضـلال والشرك، ولكـن هـذا التعلـيم الأعلى لـم يمح أثره محوًا تامًا من البشرية ولـذلك ظلـت فكـرة الألوهيـة والعبـادة بوجه عام مستمرة في جميع الشعوب، بل أن العناية السماوية بهـذا التعلـيم الروحـي لـم تقـف بـه عنـد الإنسـان الأول، بـه عـلى لسـان سـفراء الـوحي مـن الأنبيـاء والـمرسلين، وإن كتب الديانات العظمى لتنتسب كلها إلى هذا الـمصدر السماوي.

«درء التعارض بين العقل والنقل»:

والآن وقد طوفنا بل في مسالك متشعبة من الرأي في أصـل العقيـدة ومنشـئها، نريد أن نلقي معك نظرة شاملة، نضم بها أطراف البحث، ونحاول فيها التوفيق بين مختلف مذاهبه.

وسيكون سبيلنا في هذا التوفيق أن نحتفظ من كل نظرية بجانبها الإيجابي (أعنى إثباتها لصحة مسلكها) دون جانبهـا السـلبي (وهـو إنكارهـا لسـائر الـمذاهب)، ولذلك يعود الاختلاف بينها اختلاف تنوّع وتعـاون وتكامـل، لا اخـتلاف تضـاد وتعاند وتناقض...

والواقع الـذي لا مريـة فيـه هـو أن مطلـب الألوهيـة مطلـب تـوافرت عليـه الفلسفات والنبوات، وأن دلائله البرهانية ماثلة في الأنفس وفي الآفاق، وأن بواعثـه النفسية مركوزة في العقول وفي الوجدانات. غير أن الناس ليسوا على درجة سواء في سرعة الاقتناع بكل هذه الدلائل، ولا في تيقظ انتباههم بكل هـذه الوسـائل. فـرب امرئ يغلب عليه الانطواء على نفسه، فيتأثر بالإيحاء الذاتي أكثر مما يؤثر فيـه الإِيحـاء

الخارجي؛ وآخر على عكس ذلك. والـمتأثرون بالأحداث الخارجية فيهم من يـأسر لبه جمال الـمشاهد وجلالها، ومن لا يهز قلبه إلا قوارعها ومروعاتهـا؛ ورب امـرئ يعنى من هذه الأحداث بجانبهـا الـنفس الإِنسـاني، وآخـر يهـتم بجانبهـا الـسمادي العالـمي. والـمنطوون على أنفسهم منهم يغلب تفكيره وجدانه، ومنهم من تغلـب عاطفته فكرته... وإلى ذلك كله، فمـن النـاس مـن تلفتـه نظـرة عـابرة، أو لـــمحة خاطفة، ومن لا يتنبه إلا بصدمة عنيفة أو أزمة شديدة، ومن لا تتكـون عقيدتـه إلا من تضافر جملة من العوامل الـمختلفة، ومن يمر على كل هذه الدلائل وهو غافـل، فلا تستيقظ فيه بواعث الاعتقاد حتى تبين له الدلائل تبيينًا، أو يلقنها تلقينًـا. وهـل الباحثون الذين عرضنا نظرياتهم آنفًا إلا آحاد من النـاس، يغلـب عـلى كـل واحـد منهم مزاجه الخـاص في الاسـتنباط، وأسـلوبه الـــمختار في الاقتنـاع؟ فكـان مـن الطبيعي أن يبدأ كل منهم عقيدته من الطريق الذي هو أكثر إليه تنبهًا، وأشد له إلفًا، وأقوى به تأثرًا؛ ثم تتلاحق عليه الدلائل الأخرى بعد ذلك. وهكذا كان مـنهم مـن استمد إيمانه من تأملات في مشاهد الطبيعة، وآخر كانـت عقيدتـه وليـدة تجاربـه في عالـم الأرواح، وثالث استيقظ وعيه الديني من ملاحظة نفسـية في حياتـه العاديـة، ورابع من تحليله لبعض الـمعاني العقلية، وخامس استنتاجًا من القوانين الأخلاقية، وسادس لـم يرفع رأسه إلى هذه الحقائق العليا إلا بعد أن تلقاها من طريق التعـاليم الدينية. وهذه كلها طرق مؤدية للغاية. وإنما عرض الخطأ لهؤلاء الـــمفكرين الـذين شرحنا نظرياتهم آنفًا من جهة أن كل واحد منهم، حين وصف الطريق التي سلكها، نسى سائر الطرق، وجعل الأولية التي أحسها من نفسه لـبعض الـدلائل أوليـة لهـا عند الكافة، فاتخذ نفسه مقياسًا عالـميًا بغير بينة. ولو أن كل باحث وقـف بالنتيجـة عند ما تثبته مقدماتها، لقرر أن الـمنهج الذي سلكه إنما يصور نشـأة العقيـدة عنـده وعند من يشاكله في مشربه؛ ولكنهم جعلوا هـذه الحقـائق النسـبية حقـائق مطلقـة، فكان ذلك مثار النزاع والاختلاف.

ولو أننا طلبنا الحق الـمجرد في هذه الـمسألة لألفيناه ينتظم في كلـمتين:

(١) أن آيات الألوهية مبثوثة في كل شيء.

(٢) أن كل فئة من الناس لها طريق مسلوك في الاسترشاد ببعض تلك الآيات قبل بعض.

وهذه الحقيقة المزدوجة يقررها القرآن في أوضح بيان؛ حيث يقول في المقدمة الأولى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ﴾ ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾؛ ويقول في المقدمة الثانية: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

ولا جرم أنه من أجل هذا الاختلاف في وسائل الاقتناع عند الناس، تنوعت في القرآن وسائل الدعوة إلى الله، وصرفت فيه الآيات تصريفًا بليغًا. حتى إن الذي يستعرض أساليب الهداية القرآنية إلى عقيدة الألوهية يجدها قد أحاطت بأطراف هذه المسالك، وأشبعت تلك النزعات جميعًا؛ بل ربما زادت في ك منهج عناصر جديدة، لم يفطن إليها الباحثون المذكورون.

فإن شئت التحقيق فإليك نماذج قرآنية من هذه المناهج على الترتيب:

اقرأ، في المنهج الطبيعي، أمثال قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ وقوله: ﴿انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ وقوله: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

ويزيد القرآن في هذا الباب عنصرًا جديدًا، وهو عنصر الاختلاف بين المتشابهات، اختلافًا لم يتهيأ للعلم البشري معرفة أسبابه، ولا التحكم في عوامله، ولا التنبؤ به قبل ظهوره؛ لأنه، كما يقول (وليم جيمس) يرتبط بأحوال

ذرية دقيقة، لا تخضع لشيء من أنواع الـملاحظة، ولأنه لا يتبع حالة خاصة من أحوال البيئة الطبيعية ونحوها، بل يجئ مع كل الحالات الـممكنة لهذه البيئة، ومع ذلك كله تراه يسير في نظام غاية في الإحكام.

هذا الاختلاف البديع مع اتحاد البيئة والعوامل الطبيعية الظاهرة، تجد التنبيه على موضع العبرة منه في قوله تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ﴾(١) وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾(٢) وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَّ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾(٣).

وأخيرًا يعني القرآن عناية خاصة، في هذا الجانب التكويني، بظاهرة الحياة التي حيرت العلماء، فيقول: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهَّ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ﴾(٤) ويقول: ﴿أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾(٥) ويقول: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهَّ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾(٦).

هذا كله في الشطر الأول من الـمنهج الطبيعي.

فإذا انتقلت إلى الشطر الثاني منه تجد أمثال قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾(٧). وقوله: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْملاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء﴾(٨) ثم لا يكتفي القرآن ها هنا بالتنبيه إلى الحوادث الـمروعة الواقعة بالفعل، بل يضيف إليها الإنذار بالأحداث الـمتوقعة أو

(١) الرعد: ٤.
(٢) الروم: ٢٢.
(٣) فاطر: ٢٧- ٢٨.
(٤) البقرة: ٢٨.
(٥) الواقعة: ٥٩- ٦٤.
(٦) الروم: ٥٠.
(٧) الروم: ٢٤٠.
(٨) الرعد: ١٣.

المحتملة، فيقول: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[1]. ويقول: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾[2].

أما المنهج الروحي فنرى مبثوثة أيضًا في كثير من الآى.

(فمبدأ) استقلال الروح البشري وانفصاله عن الجسم وعن الروح الحيواني في هذه الحياة، (ومبدأ) بقاء هذا الروح الإنساني بعد الموت في حالة برزخية بين الدنيا والآخرة. (ومبدأ) تعلق أرواح الموتى بشؤون أهل الدنيا... هذه المبادئ كلها نراها مقررة في مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾[3]. وقوله: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾[4]. وقوله في شأن أهل الشقاوة وهم في قبورهم: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[5].

ذلك إلى ما يقرره في غير موضع من وجود أرواح أخرى مستقلة عن العالم الإنساني، ولكنها تتصل بشؤونه، ويسخرها الله في تدبير أحواله، تارة بالنصر والتأييد، وتارة بغير ذلك. اقرأ قصة الجن في السورة المسماة بهذا الاسم، وفي سورة الأنبياء، وسورة النمل، وسورة سبأ... واقرأ أخبرا الملائكة في السورة المسماة بهذا الاسم، وهي سورة فاطر، أو في السور الأخرى، مثل سورة آل عمران، وسورة الأنعام، وسورة الأنفال، وغيرهن.

---

(١) الأعراف: ٩٦- ٩٧.
(٢) سبأ: ٩.
(٣) الأنعام: ٦٠.
(٤) آل عمران: ١٦٩- ١٧٠.
(٥) غافر: ٤٧.

وكذلك المذاهب النفسية نرى منهاجها مستعملاً في القرآن حين يشير إلى قصور الإرادات الإنسانية عن بلوغ أهدافها، وإلى عجز الإنسان أمام المقادير العليا، وضرورة استسلامه لها، في قوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى * فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾(١). وقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾(٢). وقوله: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ * سَلْهُم أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾(٣).

ويزيد القرآن في هذا المعنى عنصرًا آخر عظيم الدلالة على الألوهية. وهو تحول الإرادات الإنسانية عن أهدافها، حين تنقلب كراهيتها محبة، وعداوتها محبة، وعداوتها ألفة، واستهجانها استحسانًا، وثورتها سكونًا، من غير أن يكون للأسباب الطبيعية مدخل معقول في هذا التحول؛ وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ويقول: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

ويقول: ﴿ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٦]. ويجمع ذلك كله قوله سبحانه: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤].

حتى المذهب الأخلاقي نجد لبه وجوهره في القرآن حيث يقول الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧- ٨].

بل المذهب الاجتماعي نفسه إذا عدنا إلى أساسه الصحيح، وهو تقرير ما للبيئة والوراثة من سلطان بليغ على نفوس الأفراد، كوما لها من أثر في تكوين آرائهم وعقائدهم، يسجله القرآن حقيقة واقعة: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا﴾ ﴿إِنَّا وَجَدْنَا

---

(١) النجم: ٢٤- ٢٥.
(٢) القصص: ٦٨.
(٣) القلم: ٣٧- ٤٠.

آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣].. إلا أن القرآن حين يقرر هذا الأمر الواقع لا يذكره إلا في معرض التقريع والذم، ناعيًا على العامة رضاهم بما فيه من استعباد فكري، وهبوط عن عرش الكرامة الإنسانية إلى مستوى القطعان من الماشية التي تسير وراء كل ناعق: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]. ولذلك نراه يهيب بالناس أن يميزوا الخبيث من الطيب، وأن يلتمسوا مثلهم العليا في أهل الفضائل: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر:١٧] ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وفي هذا المعنى تقول الحكمة النبوية: «لا تكونوا إِمَّعَة: تقولون إن أحسن الناس أحسنا؛ وإن ظلموا ظلمنا. ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا»(١).

أما كيف تتحرر العقول من هذا الأسر الاجتماعي القاهر، فإن القرآن يعلن أنه ليس لذلك إلا وسيلة واحدة، وهي التفكير الفردي الهادئ، المتحرر من كل القيود إلا قيود البداهة والمنطق السليم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾(٢) [سبأ:٤٦].

وأخيرًا نرى أن المذهب التعليمي ساريًا في القرآن كله، إلى جانب ما فيه من التوجيه المستمر إلى الاعتبار بتلك الآيات الواضحة، وللدلائل الائحة، في الأنفس والآفاق. فالقرآن يقرر أن الرحمة الإلهية لم تكتف بدلائل العقل، حتى أيدتها بشواهد النقل؛ وأنها قطعت حجة كل غافل، وكل متواكل.

---

(١) رواه الترمذي في باب الإحسان والعفو من أبواب البر والصلة.

(٢) تأمل جيدًا هذه الوصية الحكيمة، ترى فيها وصفًا للداء والدواء جميعًا: فهي قبل كل شيء تقرير ضمني للحقيقة الواقعة، وهي أن العقل الجمعي يطبع عقول أعضائه بطابعه المشترك، ويجعلهم يفكرون عند اجتماعهم بأسلوب مهالف لتفكيرهم عند الانفراد؛ ولذلك تدعو الآية الكريمة كل فرد من الجماعة أن يخلو بنفسه أو برفيق واحد «مثنى وفرادي» ليكون في بعض اللحظات بعيدًا عن تأثير البيئة وتيارها الجارف. وإلى جانب هذا الاعتراف بسلطان العقل الجمعي ونفوذه الفعلي في الأفراد، تشير الآية إلى أن ما تقرره هذه العقلية المشتركة ليس هو دائمًا أقرب المقررات إلى الصواب؛ ولذلك تخول كل فردٍ حقه في الحرية الفكرية والنقد النزيه لهذه المقررات العامة، استصلاحًا لما فيها من زيغ وانحراف، واستبقاءً لما فيها من خير ورشاد.

فأرسلت ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ ﴿أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

هكذا يلتقي في محيط القرآن ما رأيناه قد تشعب عند العلماء من مسالك الاعتبار، ومذاهب البحث والنظر.

وإنه لن يسع الباحث المنصف، متى تحقق من هذه الإحاطة العلمية الشاملة، إلا أن يرى فيها آية جديدة على أن القرآن المجيد ليس صورة لنفسية فرد، ولا مرآة لعقلية شعب، ولا سجلاً لتاريخ عصر؛ وإنما هو كتاب الإنسانية المفتوح، ومنهلها المورود: فمهما تتباعد الأقطار والعصور، ومهما تتعدد الأجناس والألوان واللغات، ومهما تتفاوت المشارب والنزعات، سيجد فيه كل طالب للحق سبيلاً ممهدًا، يهديه إلى الله بصيرة وبينة.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[1].

وما أروع وأجمل أدلة القرآن التي تركز على أعماق النفس البشرية والآفاق الكونية.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[2].

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[3].

وجمع بينهما أيضًا في قوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[4].

---

(١) القمر: ١٥.
(٢) فصلت: ٥٣.
(٣) الذاريات: ٢٠- ٢١.
(٤) الكهف:

وفي هذه الآية من النبوءة الصادقة ومن الإعجاز العظم ما تخّر له جبابرة العلوم المادية ساجدين، فالله تبارك وتعالى أخبر عن صنف من الناس وصفهم بالضلال بل همم دعاة الضلالة ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ ليتحدثوا عن بداية خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وقد جاء المضلون بخيلهم ورجلهم.

كما أخبر الله تبارك وتعالى ليضلوا الناس بغير علم وهذا باب فريد من أعظم الأدلة النقلية التي تخص أهل أخر الزمان، وهذه الأدلة تعمل في اتجاهين اتجاه في الإخبار والتنبؤات، والاتجاه الأخر في الكشف عن حقائق في آفاق الكون وأعماق النفس لم تكن معروفة من قبل، كشفها الله تبارك وتعالى على يد من يشاء من خلقه، بل قد أخبر القرآن أن أكثر من يتم على أيديهم كشف هذه الحقائق أنهم كفرة بالله رب العالمين وهو الذي أشار إليه في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1].

وفي قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[2].

وهذا يعتبر قسم جديد من أنواع الإعجاز القرآني، وهو ما يعرف اليوم بالإعجاز العلمي للقرآن الكريم، وأصبح فيه من المؤلفات والمصنفات ما أثرى المكتبة الإسلامية في جانب العلوم القرآنية.

فلا تعارض بين ما أنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان، وبين ما تكشفه لنا الحقائق العلمية، وأقول الحقائق العلمية التي رسخت وأصبحت حقيقة لا نظرية أو تخمين.

(فإذا انتقلنا إلى الكون وآفاقه العلوية وعوالمه الأرضية وجدناه يشهد أن الوجود شيء وإدراك الوجود شيء أخر تمامًا وأن ما لا تدرك وجوده يؤدي مهمته في الكون... فلننظر مثلاً إلى الأقمار الصناعية والإرسال التلفزيوني... هل كان أحد

---

(١) فصلت: ٥٣.

(٢) فصلت: ٥٣.

يعرف أن ما يقع في مكان ما في العالم يستطيع العالـم كلـه أن يشـهده وفي نفـس لحظة حدوثه؟! طبعًا لـم يكن أحد يعرف ذلك كيف توصل الإنسان إلى هذا التقدم العلـمي؟! هل اخترع غلافًا جويًا يستطيع أن ينقل الصور؟

لا يستطيع أحد أن يقـول أن هـذه الخصـائص التـي اسـتخدمت قـد أوجـدها الإنسان وخلقها... ولكن الغلاف الجوي والـمواد في الأرض موجودة منـذ خلـق الله الأرض ومن عليها... ولكنن خصائصها كانت غيبًا عنا.

فلـما أراد لنا الله أن نعلـمها، وجاء أوان كشـفها في قضـائه وقـدره، كشـفها لنـا لنعلـم أن ما هو غيب موجود... رغم أننا لـم ندرك وجوده.

في مؤتمر الإعجاز القرآني والذي كان مقره بالسعودية عُرض معنى قوله تعـالى: **﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾**(١).

على الدكتور/ الفريد كرونر من أشهر علـماء العالـم في الجيولوجيـا... وعنـدما قرأ الـمعنى أخذ يصيح: مستحيل... مستحيل أن تكون هذه الحقائق قد ذكـرت في أي كتاب منذ أربعة عشر قرنًا... إننا لـم نصـل إلى هـذه الحقيقـة العلـمية إلا منـذ سنوات وباستخدام وسائل عملية متقدمة جدًّا وبعد دراسات معقدة طويلة خاصـة بعلـم الطبيعة النووية... والأصل الواحد للكون لا يمكن أن يكون قد توصل إليـه بشر منذ ألف وأربعمائة سـنة... ولكـن الوسـائل العلـمية الحـديث الآن في وضـع تستطيع أن تثبت ما جاء به محمد ﷺ منذ ألف وأربعمائة عام.

وعرض في الـمؤتمر أيضًا قـول النبـي ﷺ: «**لَا تَقُـومُ السَّـاعَةُ حَتَّـى تَعُـودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا، كَمَا كَانَت مُرُوجًا وَأَنْهَارًا**»(٢).

---

(١) الأنبياء: ٣٠.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

ولما سئل الدكتور كرونر هل كانت أرض العرب بساتين وأنهارًا كما روى رسول الله ﷺ، قال: نعم... فقيل له: متى كان ذلك؟

قال: في العصر الجليدي الأول الذي مر به العالم في عصوره الأولى... وسئل كرونر من الذي أخبر رسول الله ﷺ بهذه الحقيقة؟ فسألوه هل تعود بلاد العرب بساتين وأنهارًا مرة أخرى؟

قال: نعم. هذه حقيقة علمية.

قالوا: كيف تقول على شيء سيقع في المستقبل أنه حقيقة علمية؟

قال: لأن العصر الجليدي الثاني قد بدأ... ومن مقدماته ذلك الشتاء القارس والعواصف الثلجية التي بدأت تزحف في أوربا في السنوات الأخيرة... وكل شتاء سيأتي سيكون أقسى من الذي قبله فكتلة الجليد في القطب الشمالي بدأت تزحف ببطء نحو الجنوب... وهي في كل عام تقترب... ولكن ببطء جدًّا في المنطقة التي فيها بلاد العرب... وعندما يزداد هذا الاقتراب بعد فترة طويلة من منطقة بلاد العرب... وعندما يزداد هذا الاقتراب بعد فترة طويلة من منطقة بلاد العرب ستعود بساتين وأنهارًا.

والعجيب أنه في الشتاء الماضي غمرت الثلوج أرض الجزيرة لأول مرة منذ قرون طويلة... وصلت درجة الحرارة هناك إلى عدة درجات تحت الصفر.

وعندما سئل الدكتور كرونر هل الرومان الذين أخبروا رسول الله ﷺ بأن بلاد العرب ستعود بساتين وأنهارًا؟

قال: لا يمكن أن يحدث ذلك إلا بوحي من السماء.

تعالى معي نصعد من المروج والأنهار إلى أفق السماء مرة أخرى عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[1].

(١) فصلت: ١١.

قرأ البروفيسور يوشيدي كوزاي مدير مرصد طوكيو هذا الكلام وأراد أن ينهي المناقشة.. وقال العلم لم يصل إلا منذ فترة بسيطة جدًّا إلى أن السماء كانت دخانًا... وقد أصبح هذا شيئا مشهودًا ومرئيًا الآن... بعد إطلاق سفن الفضاء والأقمار الصناعية وعرض صورًا التقطت لنجم في السماء وهو يتكون... وقد بدا كتلة من الدخان في وسطها تكون الجزء المضيء من النجم وحوله الدخان وتحيط بالدخان حافة حمراء دليل على ارتفاع درجة الحرارة.

وقال لقد كنا نعتقد منذ سنوات فقط أن السماء كانت ضبابًا... ولكننا عرفنا الآن بعد التقدم العلمي بأنها ليست ضبابًا ولكنها دخان؛ لأن الضباب خامد وبارد... والدخان حار وفيه حركة... وهذا يدل على أن السماء كانت دخانًا، وقال: إنني متأثر جدًّا باكتشاف هذه الحقيقة في القرآن.

وإذا كنا نريد أن نمضي في التفاصيل... ليقتنع من لم يقتنع... فإننا نستعرض بسرعة.. بعض ما قاله أشهر علماء العالم في مؤتمرات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم... الدكتور استروخ من أشهر علماء العالم وكالة ناسا الأمريكية للفضاء... قال: لقد أجرينا أبحاثا كثيرة على معادن الأرض وأبحاثًا معملية... ولكن المعدن الوحيد الذي يحير العلماء هو الحديد... فذرات الحديد لها تكوين مميز.. إن الالكترونات والنيترونات في ذرة الحديد لكي تتحد... محتاجة إلى طاقة هائلة تبلغ أربع مرات مجموع الطاقة الموجودة في مجموعتنا الشمسية... ولذلك فلا يمكن أن يكون الحديد قد تكون على الأرض... ولابد أنه عنصر غريب، وفد إلى الأرض ولم يتكون فيها... فلما ترجموا له معنى الآية الكريمة.

﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[1].

قال: إن هذا الكلام لا يمكن أن يكون من كلام البشر.

---

(١) الحديد: ٢٥.

فإذا تركنا السماء وأسرارها ونزلنا إلى أعماق البحار وجدنا شيئًا عجيبًا... إن الصور الحديثة التي التقطت للبحار قد أثبتت أن بحار الدنيا ليست موحدة التكوين... بل هي تختلف في الحرارة والملوحة والكثافة ونسبة الأكسوجين... وفي صورة التقطت بالأقمار الصناعية... ظهر كل بحر بلون مختلف عن البحر الآخر... فبعضها أزرق قاتم وبعضها أسود وبعضها أصفر... وذلك بسبب اختلاف درجات الحرارة في كل بحر عن الآخر... وقد التقطت هذه الصورة بالخاصية الحرارية... وبالأقمار الصناعية ومن سفن الفضاء... وظهر خط أبيض رفيع يفصل بين كل بحر وآخر... فإذا قرأت الآية الكريمة:

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾(١).

نجد أن وسائل العلم الحديثة قد وصلت إلى تصوير البرزخ بين البحرين...وبينت معنى ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾... بأن مياه أي بحر حين تدخل إلى البحر الآخر عن طريق البرزخ.. فإنها تأخذ وقت دخولها خصائص البحر الذي تدخل له، فلا تبغي مياه بحر على مياه بحر آخر فتغيرها.

ولقد تم الوصول إلى هذه الحقائق بعد إقامة مئات من المحطات البحرية... والتقاط الصور بالأقمار الصناعية... والذي قال هذا الكلام هو البروفيسور شرايدر من أكبر علماء البحار بألمانيا الغربية... الذي كان يقول في أول كلامه: إذا تقدم العلم فلابد أن يتراجع الدين... فعندما سمع معاني آيات القرآن بهت، وقال: إن هذا لا يمكن أن يكون كلام بشر.

ويأتي البروفيسور دورجاروا أستاذ علم جيولوجيا البحار ليعطينا ما وصل إليه العلم في قوله تعالى:

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ

---

(١) الرحمن: ١٩- ٢٠.

﴿ظُلُمَـٰتٌۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾(١).

فيقول لقد كـان الإنسـان في الـماضي لا يستطيع أن يغـوص بـدون استخدام الآلات أكثر من عشريـن مـترًا... ولكننـا نغـوص الآن في أعـماق البحـار بواسـطة الـمعدات الحديثة... فنجد ظلامًا شديدًا على عمق مائتي متر...

الآية الكريمة تقول: ﴿بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾.. وأعطتنا اكتشـافات أعـماق البحـار صـورة لـمعنى قوله تعالى: ﴿ظُلُمَـٰتٌۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾.

فالـمعروف أن ألوان الطيف سبعة... منها الأحمر والأصفر والأزرق والأخضر والبرتقالي إلى آخره... فإذا غصنا في أعماق البحر تختفـي هـذه الألـوان اختفـاء هـو اللون الأزرق على عمق مائتي متر... كل لون يختفي يعطي جزءًا من الظلـمة حتى تصل إلى الظلـمة الكاملة... أما قوله تعالى: ﴿مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ﴾... فقـد ثبـت علـميًّا أن هناك فاصلاً بين الجزء العميق مـن البحـر والجـزء العلـوي... وأن هـذا الفاصل مليء بالأمواج... فكأن هناك أمواجًا على حافة الجزء العميق الـمظلـم مـن البحر وهذه لا نراها... وهناك أمواج على سطح البحر وهذه نراها... فكأنـه مـوج من فوق موج... وهذه حقيقة علـمية مؤكدة.

ولذلك قال البروفيسور دورجاروا عن هذه الآيات القرآنية إن هذا لا يمكن أن يكون علـما بشريًّا.

وإذا كانت العلوم الحديثة أكدت أن للجبال جذور عميقة في الأرض... وهو ما لـم يكن معروفًا... في كل الخرائط الجغرافية تظهر الجبال بـلا جـذور ممتـدة داخـل الأرض... ولكن الصور الأخيرة التي التقطت للجبال... ظهر فيها أن لكـل جبـل وتدًا يقويه يسميه العلـماء جذرًا... وأن هذا الجذر يمتد إل أعماق بعيـدة... وهكـذا

---

(١) النور: ٤٠.

ظهر إعجاز الآية الكريمة:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾[١].

ثم جاءت حقيقة أخرى في قوله تعالى:

﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾[٢].

وقد فسرت أدنى على أساس أنها قريبة من أرض العرب... فقد حدثت المعركة قرب بيت المقدس... وجاءت الخرائط الجيولوجية التي صورت أخيرًا بالأقمار الصناعية... لتثبت أن المنطقة التي دارت فيها المعركة هي أكثر الأماكن انخفاضًا على سطح الأرض... وأدنى تعني المكان المنخفض.

إلى هنا وقد أوردنا عددًا من الأبحاث التي تمت في مؤتمرات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم... والتي شارك فيها عدد من أكبر علماء العالم في مختلف فروع العلم من غير المؤمنين... والذين شهدوا جميعًا أن الآيات القرآنية التي قرئ عليهم معانيها... لا يمكن أن تكون إلا من وحي إلهي... ومن خالق لهذا الكون... نقول للناس جميعًا: إنه يكفي كل ما قلنا كأدلة علمية على وجود الله... كلها جاءت من أفواه الذين لا يؤمنون... ورفضوا الإيمان حتى بعد أن سمعوا هذا الإعجاز القرآني.

إن كل ما أوردناه ليس مجال بحث ولكنه قائم على المشاهدة والرؤية... وعلى صور عرضت وقدمت... ولم يكن الذين قدموا هذه الصور يهمهم إثبات معجزات وآيات القرآن الكريم... بل إن معظمهم كان يقول: إذا جاء العلم فليتراجع الدين... وبعضهم عارض في أول الأمر في الاشتراك في حوار يدخل فيه الدين...

(١) النبأ: ٦- ٧.

(٢) الروم: ١- ٣.

وإذا كـان الله سـبحانه وتعـالى قـد اسـتخدم غـير الـمؤمنين في إثبـات قضـية الإيمان... فلابد أن نعلـم أن الـمؤمن والكـافر... كلـيهما يخـدم قضـية الإيـمان في الكون[١].

فهذا قليل من كثير ولو استعرضنا الآيات القرآنية التي تتحـدث عـن الإعجـاز العلـمي في السماء والأرض والبحار والجبال والنبات والحيوان والإنسان لضاق بنا الـمقام، ومن أراد أن يستزيد من هذا فعليه بقـراءة كتـب رواد هـذا العلـم أمثـال الشيخ/ عبد الـمجيد الزنداني، والدكتور/ زغلـول النجـار - حفظهـما الله تعـالى- وأعجب ما في هـذا الأمـر أن الإعجـاز لا يقـتصر عـلى تصـديق الحقيقـة العلـمية للـمعجزة القرآنية؛ بل إن الإعجاز الأكبر في الأسلوب العجيب الذي تعـرض بـه، أسلوب القرآن الفريد الذي يأخذ بمجامع القلوب والأرواح، فهو لـيس كالكتـب العلـمية البحتة الجافة التي سرعان ما يمل منها القلب والعقل إنـما هـو تنزيـل مـن حكيم حميد، فصلت آياته من لدن حكيم خبير سبحانه وتعالى (فهو كتابه الدال عليه لـمن أراد معرفتـه، وطريقـه الـموصلة إليـه ونـوره الـمبين للـذي أشرقـت لـه الظلـمات، ورحمته الـمهداة التي بها صلاح جميع الـمخلوقات والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب، وبابه الأعظم الذي منه الـدخول، فـلا يغلـق إذا غلّقت الأبواب، وهو الصراط الـمستقيم الذي لا تميل الآراء، والذكر الحكيم الذي لا تزيغ به الأهواء، والنزل الكريم الذي لا يشبع منه العلـماء، لا تفني عجائبـه، ولا تقلع سحائبه، ولا تنقضي آياته، لا تختلف دلالاته، كلـما ازدادت البصائر فيـه تـاملاً وتفكيرًا، زادها هداية وتبصيرًا - وكلـما بجّست معينة فجرّ لها ينابيع الحكمة تفجيرًا فهو نور البصائر من عماها، وشـفاء الصـدور مـن أدوائهـا، وحيـاة القلـوب ولـذة النفوس ورياضة القلوب، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفـراح والـمنادي بالـمساء والصباح يا أهل الفلاح حي على الفلاح[٢].

---

(١) «الأدلة الـمادية على وجود الله» محمد متولي الشعراوي ص١٣١ - ١٣٥.

(٢) مدارج السالكين ص١٧.

فليس هناك كتابًا يتزود منه المؤمن مثل كتاب الله ﷻ، وليس هناك منهاجًا بتحديد الإيمان يعدل منهاج القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1].

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا﴾[2].

فهو ذكرى وتذكرة وهدى ورحمة للمؤمنين، وهو في الوقت ذاته دعوة تامة مكتملة لغير المسلمين.

﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[3].

فالقرآن كتاب هداية للمؤمنين ولغير المؤمنين، وذلك أن الهداية خاصة وعامة، خاصة للمؤمنين المتقين ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[4].

بمعنى التوفيق للإيمان وتحبيبه إلى النفوس وتجديده في القلوب أما الهداية العامة فهي هداية البيان والبرهان وهي تشمل المؤمن وغير المؤمن.

يقول صاحب «أضواء البيان» عند قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

صرّح في هذه الآية بأن هذا القرآن هدى للمتقين ويفهم من مفهوم الآية – أعني: مفهوم المخالفة المعروف بدليل الخطاب- أن غير المتقين ليس هذا القرآن هدى لهم، وصرح بهذا المفهوم في آيات آخر كقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى

---

(١) الأنفال: ٢.
(٢) التوبة: ١٢٤.
(٣) النمل: ٩٢- ٩٣.
(٤) البقرة: ٢.

وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[1].

وقوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾[2].

وقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[3].

ومعلوم أن المراد بالهدى في آية سورة البقرة السابقة الهدى الخاص الذي هو التفضل بالتوفيق إلى دين الحق، لا الهدى العام، الذي هو إيضاح الحق[4].

وتمتاز أدلة القرآن في التعريف بالرحمن بأنها تخاطب المؤمن وغير المؤمن فالمؤمن يزداد إيمانه ويتجدد وغير المؤمن يستبصر ويسترشد: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[5].

واختم حديثي عن الأدلة القرآنية بالمناظرة الكبرى التي وصى بها الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يعلنها مناظرة للناس كافة ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن

---

(١) فصلت: ٤٤.

(٢) التوبة: ١٢٤ - ١٢٥.

(٣) المائدة: ٦٤.

(٤) «أضواء البيان» ١/ ٥١.

(٥) البقرة: ١٨٥.

تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[١].

***

(١) النمل: ٥٩- ٦٤.

(٨)

(الرب – والربوبية)

لطالما أكثر الناس الثناء على شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله- لما وفقه الله إليه من العمل الصالح والعلم النافع والبيان الساطع لعقيدة التوحيد.

فما كان من شيخ الإسلام – رحمه الله- إلا أن يقول لهم كلمة واحدة: (والله ما زلت أجدد لا إله إلا الله).

فما أحسن أخي المسلم أن تكون هذه الكلمة دائمًا وأبدًا جديدة في قلبك فهذه هي سعادة الدنيا والآخرة.

وتجديدها بالعلم والعمل والدعوة إليها، فكلما كررت على مسامع قلبك معاني الرب والربوبية وانفراد الله ﷻ بالخلق والملك والتدبير، ومعاني الله والإلوهية وأفراد الله بالعبادة يؤهلك كل ذلك للدخول في مملكة (الأسماء والصفات) أي: تأهلت لفهم أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وتجددت كلمة التوحيد في قلبك.

أما الاكتفاء على ترديد كلمة التوحيد بلا فهم ولا علم ولا عمل، فإن ذلك يودي بحياة هذه الكلمة في قلب المسلم وتبلى كما يبلى الثوب فيتهافت؛ بل وقد يحدث ذلك لمن حفظ القرآن وانشغل بالعلوم الشرعية ولكن خالف قول عمله، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٌ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾(١).

روى الدارمي بسنده عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «سَيَبْلَى الْقُرآنُ فِي

(١) الأعراف: ١٦٩.

صُدُورِ أَقْوَامٍ كَمَا يَبْلَى الثَّوْبُ، فَيَتَهَافَتُ يَقْرَءُونَهُ لَا يَجِدُونَ لَهُ شَهْوَةً وَلَا لَذَّةً يَلْبَسُونَ جُلُودَ الضَّأْنِ عَلَى قُلُوبِ الذِّئَابِ أَعْمَالُهُمْ طَمَعٌ لَا يُخَالِطُهُ خَوْفٌ إِنْ قَصَّرُوا، قَالُوا: سَنَبْلُغُ، وَإِنْ أَسَاءُوا قَالُوا: سَيُغْفَرُ لَنَا إِنَّا لَا نُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا».

إن طول الأمد على تقصير العبد تجاه ربه في العلم والعمل وتكاسله في أمور دينه يبعث على قسوة قلبه.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾(١).

هذا بالنسبة للفرد، أما بالنسبة للأمم فطول الأمد على بعدها وصدها يولد تحريف العقائد، وبرود أمر الدين في القلوب؛ لذا فقد منَّ الله على أمة الإسلام بأن يبعث لها على رأس كل مائة عام من يجدد لها أمر دينها، بتذكير الناس وحضهم على ما كان عليه الرعيل الأول، وترغيبهم فيما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، فقد تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها.

«تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا».

وأعظم ما يبدأ العبد بتجديده في القلب (قضية التوحيد) الذي هو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

وينبغي للمؤمن الصادق أن يظل حياته كلها مجددًا ومحققًا لكلمة التوحيد وبداية ذلك أن يشكر ربه ويحمده حمدًا جزيلاً على نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد أي: نعمة أن أوجده من عدم، وأن مده بالنعم، فأول ما يجب على العبد أن يفرده سبحانه بالربوبية ويخصه - جل وعلا- بالخلق والملك والتدبير، فإن معاني الربوبية تحوم حول الخلق والملك والتدبير، فما معنى الرب؟

(١) الحديد: ١٦.

يقول ابن منظور – رحمه الله-: (الـرب يطلـق في اللغـة عـلى الـمالك والسيد والـمدبر والقيم والـمنعم، ولا يطلق غير مضاف إلا عـلى الله ﷻ، وإذا أطلـق عـلى غيره أضيف فقيل رب كذا).

وفي حديث إجابة الـمؤمن اللهم رب هذه الدعوة التامة أي: صاحبها.

وقوله: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾[(١)] أي: إلى صاحبك الذي منه أتيت.

والرّباني: الـموصوف بعلـم الرب، وهو العالـم الـمعلـم الـذي يغـزو النـاس بصغار العلـم قبل كباره[(٢)].

- قال وكيع بن الجراح: الرب: الـمصلح والجابر والـمدبر والقائم.

- **وقال ابن فارس في «مقاييس اللغة»**[(٣)]:

الرب: الراء والباء يدل على أصول:

الأول: إصـلاح الشيء والقيـام عليـه، فـالرب: الخـالق والـمالك والصـاحب والرب: الـمصلح للشيء.

يقال: رب فلان ضيعته إذا قام على إصلاحها.

والأصل الآخر: لزوم الشيء والإقامة عليه.

والأصل الثالث: ضم الشيء للشيء.

وبتجميع هذه الـمعاني لكلـمة (الـرب) يتضـح أن هـذا الاسـم مـن الأسـماء الجامعة لكثير من أسماء الله الحسنى كالعليم – اللطيف – الخبير – القـوي – الخـالق – الـمالك – الـمعز – الـمذل – الرزاق – الحي – القيوم... وغيرهـا مـن الأسـماء والصفات التي تجب للخالق الـمالك الـمدبر.

---

(١) الفجر: ٢٨.

(٢) «لسان العرب».

(٣) ٢/ ٣٨١.

توحيد الربوبية:

(إفراد الله بالخلق والملك والتدبير) هذا هو معنى توحيد الربوبية، وهذا المعنى يقربه أكثر الناس مؤمنهم وكافرهم كما سبق وقد أشار القرآن الكريم أن الكفار يقرون بهذا النوع من التوحيد فقال سبحانه:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾(١).

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾(٤).

فالإقرار وحده بتوحيد الربوبية لا يُدخل صاحبه الجنة ولا يُنجيه من النار إنما الإيمان الحق بربوبية الله ﷻ يقتضي الآتي:

---

(١) العنكبوت: ٦١.

(٢) العنكبوت: ٦٣.

(٣) يونس: ٣١.

(٤) المؤمنون: ٨٤- ٨٩.

أولاً: أن الله هو الخالق الرزّاق الـمحيي الـمميت النافع الضار.

ثانيًا: أن الله سبحانه وحده هو الذي يجازي عباده ثوابًا وعقابًا في الدنيا والآخرة لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه، وذلك يدخل تحت تدبيره للعالم العلوي والسفلي.

ثالثًا: أن الله الذي خلق هو الذي يأمر وينهى ويحلِّل ويحرِّم ويشرِّع.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾(١).

روى الترمذي عن عدي بن حاتم قال: عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: **يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ**، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ **﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾** قَالَ: **أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ**». قَالَ هَذَا حديث غريب.

من أجل ذلك يدخل مبحث (الحكم بما أنزل الله) تحت (توحيد الربوبية) لأنها من خصوصيات الخالق العظيم الذي يعلم ما يصلح خلقه وما يفسدهم ويعلم من يسعدهم وما يشقيهم **﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾**(٢). كذلك يدخل هذا المبحث في توحيد الأسماء والصفات فهو سبحانه الحكم العدل اللطيف الخبير.

ولا يخرج (الحكم بما أنزل الله) عن توحيد الإلوهية أيضًا لأن الله أمرنا ألا نتحاكم إلا إليه **﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ**

---

(١) الأعراف: ٥٤.

(٢) تبارك: ١٤.

أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

لذا فقد حكم ﷻ بالكفر والظلم والفسق على من خرج عن (الحكم بما أنزل الله).

فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(٢).

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٣).

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(٤).

ووصف الله تبارك وتعالى كل حُكمٍ غير حكمه بالجاهلية فقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(٥).

وذلك أن الحكم والتشريع من أخص خصائص الربوبية، فمن تحاكم إلى غيره فقد وقع في مستنقع الجاهلية، فالتشريع يشمل: العلم، الرسالات، الكتب،

(١) يوسف: ٤٠.
(٢) المائدة: ٤٤.
(٣) المائدة: ٤٥.
(٤) المائدة: ٤٧.
(٥) المائدة: ٥٠.

الوحي، التحليل، والتحريم، فالذي يرسل الرسل وينزل الكتب ويحل ويحرم هو (الرب) ﷻ.

١ - العلم: كقوله: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾[1]، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[2]، فالعلم يطلب من الرب ﷻ.

٢ - الرسالات: كقوله تعالى: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾[3]، إذن فالذي يرسل الرسل هو (الرب) ﷻ.

٣ - الكتب: كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾[4] ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾[5] ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾[6]

٤ - الوحي: كقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾[7] ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾[8].

٥ - التحليل والتحريم: كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[9] ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[10].

إذن فالتحليل والتحريم (التشريع) حق خالص (للرب) ﷻ، لا ينازعه فيه أحد، ومن فعل هذا فقد ادعى الربوبية، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ

---

(١) يوسف: ٣٧.
(٢) طه: ١١٤.
(٣) الجن: ٢٨.
(٤) الرعد: ١.
(٥) الزمر: ٥٥.
(٦) النحل: ١٠٢
(٧) الإسراء: ٣٩.
(٨) الأنفال: ١٢.
(٩) الأنعام: ١٥١.
(١٠) الأعراف: ٣٣.

﴿وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾(١) تأمل أخي كلمة (أربابًا) جمع (رب) ولم يقل (آلهة) لأن المقام مقام التشريع: تحليل وتحريم.

وتأمل أيضًا قول سيدنا يوسف عليه السلام لما قال لصاحبيه في السجن: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾(٢). أفراعين متفرقون - لا مجتمعون - خير أم الله الواحد القهار، ذلك يأتي بتشريع من الشرق وذلك يأتي بتشريع من الغرب وآخر يأتي بتشريع من عبدة البقر ثم يجنس هذا كله بلحاء الشريعة ثم يقال هذه هي الشريعة الإسلامية: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ﴾(٣) مشرع وتشريع واحد خير أم الله الواحد القهار ويقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾(٤).

والطاغوت في اصطلاح القرآن كما يقول سيد قطب - رحمه الله تعالى- في «الظلال»: كل دولة أو سلطة وكل إمامة أو قيادة تبغي على الله عز وجل وتتمرد على شرعه ثم تنفذ حكمها في أرضه وتحمل عباده على طاعتها بالإكراه أو الإغراء - تلفاز وصحف ومجلات أو بالتعليم الفاسد، فاستسلام المرء لمثل تلك السلطة وتلك القيادة وتعبده لها ثم طاعته إياها كل ذلك منه عبادة ولا شك للطاغوت، فكل من تمرد على حكم الله تعالى واتبع تحليل وتحريم الله غير الله فهو خارج عن دين الله قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٥) فكل من لا يحكم أو لا يرضى بحكم الله فهو خارج عن هذا الدين القيم بنص هذه الآية.اهـ.

وكما هو مقرر في كتب العقيدة أن من نواقض الإسلام العشرة وأن من أتى

---

(١) التوبة: ٣١.
(٢) يوسف: ٣٩.
(٣) يوسف: ٣٩.
(٤) الزمر: ١٧.
(٥) يوسف: ٤٠.

بواحدة منها خرج عن دائرة الإسلام: من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه أو حكم غيره أحسن من حكمه كالذين يفضلون حكم الطواغيت على حكمه – فهو كافر وأيضًا من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عليه السلام فهو كافر، ولا فرق بين الهازل والجاد والخائف إلا المكره.

ونخلص مما سبق إلى أن كل من حكم أو رضى بحكم غير حكم (الرب) فقد نصب نفسه ربًا من دون الله عابدًا لغير الله تعالى(١).

فالله وحده الذي خلق وهو وحده الذي يحكم ويشرع، لا يُشرك في حكمه أحدًا من خلقه لا إنس ولا جن ولا رسول ولا ملك ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾(٢).

ويفهم من هذه الآيات كقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦] أن متبعي أحكام المشرعين غير ما شرعه الله أنهم مشركون بالله. وهذا المفهوم جاء مبينًا في آيات أخر. مقوله فيمن ابتع تشريع الشيطان في إباحة الميتة بدعوى أنها ذبيحة الله: ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١] فصرح بأنهم مشركون بطاعتهم. وهذا الإشراك في الطاعة، واتباع التشريع المخالف لما شرعه الله تعالى- هو المراد بعبادة الشيطان في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠- ٦١]، وقوله تعالى عن نبيه إبراهيم: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧] أي ما يعبدون إلا شيطانًا، أي وذلك باتباع تشريعه. ولذا سمي الله تعالى الذين يطاعون

(١) «القول الأسنى» ص٦٢، ٦٣.

(٢) الكهف: ٢٦.

فيما زينوا من المعاصي شركاء في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]الآية. وقد بين النَّبي ﷺ هذا لعدي بن حاتم ﵁ لما سأله عن قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] الآية- فبين له أنهم أحلوا لهم ما حرم الله، وحرموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم في ذلك، وأن ذلك أن يتحاكموا إلى غير ما أربابًا. ومن أصرح الأدلة في هذا: أن الله جل وعلا في سورة النساء بين أن من يريدون أن يتحاكموا إلى غير ما شرعه الله يتعجب من زعمهم أنهم مؤمنون، وما ذلك إلا لأن دعواهم الإيمان مع إرادة التحاكم إلى الطاغوت بالغة من الكذب ما يحصل منه العجب. وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور: أن الذين يتبعون القوانين الوضيعة التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله جل وعلا على ألسنة رسله ﷺ، أنه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته، وأعماه عن نور الوحي مثلهم(١).

أما يكفي أن الله تعالى أقسم بذاته المقدسة على نفي إيمان من تحاكم إلى غيره قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(٢).

وإن أكبر علاجات النفاق التحاكم إلى الطاغوت.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِۦ وَيُرِيدُ

(١) (أضواء البيان) ص ٣٧٦، ٣٧٨.
(٢) النساء: ٦٥.

ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾[١].

وسبب نزول هذه الآيات خصومة وقعت بين منافق ويهودي، فقال المنافق: تتحاكم إلى كعب بن الأشرف، وقال اليهودي نتحاكم إلى محمد على عادة أهل الجاهلية فكان ذلك تحاكمًا إلى الطاغوت.

فهذه حقيقة كلية من حقائق الإسلام؛ جاءت في صورة قسم مؤكد؛ مطلقة من كل قيد.. وليس هناك مجال للوهم أو الإيهام بأن تحكيم رسول الله ﷺ هو تحكيم شخصه. إنما هو تحكيم شريعته ومنهجه. وإلا لم يبق لشريعة الله وسنة رسوله مكان بعد وفاته ﷺ وذلك قول أشد المرتدين ارتداداً على عهد أبي بكر ﵁ وهو الذي قاتلهم عليه قتال المرتدين. بل قاتلهم على ما هو دونه بكثير. وهو مجرد عدم الطاعة لله ورسوله، في حكم الزكاة؛ وعدم قبول حكم رسول الله فيها، بعد الوفاة!

وإذا كان يكفي لإثبات (الإسلام) أن يتحاكم الناس إلى شريعة الله وحكم رسوله.. فانه لا يكفي في (الإيمان) هذا، ما لم يصحبه الرضى النفسي، والقبول القلبي، وإسلام القلب والجنان، في اطمئنان! هذا هو الإسلام.

وهذا هو الإيمان.. فلتنظر نفس أين هي من الإسلام؛ وأين هي من الإيمان! قبل ادعاء الإسلام وادعاء الإيمان! وبعد أن يقرر أن لا إيمان قبل تحكيم رسول الله ﷺ وقبل الرضى والتسليم بقضائه، يعود ليقول: إن هذا المنهج الذي يدعون إليه؛ وهذه الشريعة التي يقال لهم: تحاكموا إليها - لا لسواها- وهذا القضاء الذي يتحتم عليهم قبوله والرضاء به... إنه منهج ميسر، وشريعة سمحة، وقضاء رحيم.. إنه لا يكلفهم شيئاً فوق طاقتهم؛ ولا يكلفهم عنتاً يشق عليهم؛ ولا يكلفهم التضحية بعزيز عليهم.. فالله يعلم ضعف الإنسان؛ ويرحم هذا الضعف. والله يعلم أنهم لو كلفوا تكاليف شاقة، ما أداها إلا قليل منهم.. وهو لا يريد لهم العنت، ولا يريد لهم أن يقعوا في المعصية.. ومن ثم لم يكتب عليهم ما يشق،

---

(١) النساء: ٦٠.

وما يدعو الكثيرين منهم للتقصير والمعصية. ولو أنهم استجابوا للتكاليف اليسيرة التي كتبها الله عليهم؛ واستمعوا للموعظة التي يعظهم الله بها؛ لنالوا خيراً عظيماً في الدنيا والآخرة؛ ولأعانهم الله بالهدى، كما يعين كل من يجاهد للهدى بالعزم والقصد والعمل والإرادة، في حدود الطاقة: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[1].

إن هذا المنهج ميسر لينهض به كل ذي فطرة سوية. إنه لا يحتاج للعزائم الخارقة الفائقة، التي لا توجد عادة إلا في القلة من البشر. وهذا الدين لم يجيء لهذه القلة القليلة. إنه جاء للناس جميعاً. والناس معادن، وألوان، وطبقات. من ناحية القدرة على النهوض بالتكاليف. وهذا الدين ييسر لهم جميعاً أن يؤدوا الطاعات المطلوبة فيه، وأن يكفوا عن المعاصي التي نهى عنها. وقتل النفس، والخروج من الديار... مثلان للتكاليف الشاقة، التي لو كتبت عليهم ما فعلها إلا قليل منهم. وهي لم تكتب لأنه ليس المراد من التكاليف أن يعجز عنها عامة الناس؛ وأن ينكل عنها عامة الناس. بل المراد أن يؤديها الجميع، وأن يقدر عليها الجميع، وأن يشمل موكب الإيمان كل النفوس السوية العادية؛ وأن ينتظم المجتمع المسلم طبقات النفوس، وطبقات الهمم، وطبقات الاستعدادات؛ وأن ينميها جميعاً ويرقيها، في أثناء سير الموكب الحافل الشامل العريض!

قال ابن جريج: حدثنا المثنى إسحاق أبو الأزهر، عن إسماعيل، عن أبي إسحاق السبيعي قال: لما نزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ الآية[2]: قال رجل: لو أمرنا لفعلنا، والحمد لله الذي عافانا.. بلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «إن

---

(١) النساء: ٦٦ - ٦٨.

(٢) النساء: ٦٦.

من أمتي لرجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي».

وروى ابن أبي حاتم - بإسناده - عن مصعب بن ثابت. عن عمه عامر بن عبد الله بن الزبير. قال: لما نزلت ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾[1] قال رسول الله ﷺ: «لو نزلت لكان ابن أم عبد منهم».

وفي رواية له - بإسناده - عن شريح بن عبيد: قال: لما تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ...﴾ الآية[2]، أشار رسول الله ﷺ بيده إلى عبد الله ابن رواحة، فقال: «لو أن الله كتب هذا، لكان هذا من أولئك القليل».

وكان رسول الله ﷺ يعرف رجاله معرفة وثيقة عميقة دقيقة؛ ويعرف من خصائص كل منهم ما لا يعرفه كل منهم عن نفسه!

وفي السيرة من هذا الكثير من الشواهد على خبرة الرسول ﷺ بكل واحد من رجاله؛ وخبرته كذلك بالرجال والقبائل التي كانت تحاربه.. خبرة القائد البصير بكل ما حوله ومن حوله.. في دقة عجيبة.. لم تدرس بعد الدراسة الواجبة.

وليس هذا موضوعنا. ولكن موضوعنا أن رسول الله ﷺ كان يعرف أن في أمته من ينهض بالتكاليف الشاقة لو كتبت عليهم. ولكنه كان يعرف كذلك أن الدين لم يجيء لهذه القلة الممتازة في البشرية كلها. وكان الله - سبحانه - يعلم طبيعة هذا «الإنسان» الذي خلقه؛ وحدود طاقته؛ فلم يكتب على الناس في الدين الذي جاء للبشر أجمعين، إلا ما هو ميسر للجميع؛ حين تصح العزيمة، وتعتدل الفطرة، وينوي العبد الطاعة، ولا يستهتر ولا يستهين.

وتقرير هذه الحقيقة ذو أهمية خاصة؛ في مواجهة الدعوات الهدامة؛ التي تدعو

---

(١) النساء: ٦٦.
(٢) النساء: ٦٦.

الإنسان إلى الانحلال والحيوانية، والتلبط في الوحل كالدود! بحجة أن هذا هو (واقع) الإنسان، وطبيعته وفطرته وحدود طاقته! وأن الدين دعوة (مثالية) لـم تجيء لتحقق في واقع الأرض؛ وإذا نهض بتكاليفها فرد، فإن مائة لا يطيقون!

هذه دعوى كاذبة أولاً؛ وخادعة ثانياً؛ وجاهلة ثالثاً.. لأنها لا تفهم «الإنسان» ولا تعلـم منه ما يعلـمه خالقه، الذي فرض عليه تكاليف الدين؛ وهو يعلـم - سبحانه- أنها داخلة في مقدور الإنسان العادي. لأن الدين لـم يجيء للقلائل الـممتازين!

وإن هي إلا العزيمة - عزيمة الفرد العادي - وإخلاص النية. والبدء في الطريق. وعندئذ يكون ما يعد الله به العاملين: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[1].

فمجرد البدء، يتبعه العون من الله. ويتبعه التثبيت على الـمضي في الطريق. ويتبعه الأجر العظيم. وتتبعه الهداية إلى الطريق الـمستقيم.. وصدق الله العظيم.. فما يخدع الله - سبحانه وتعالى - عباده؛ ولا يعدهم وعداً لا يفي لهم به؛ ولا يحدثهم إلا حديث الصدق.. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[2] في الوقت ذاته ليس اليسر - في هذا الـمنهج - هو الترخص. ليس هو تجميع الرخص كلها في هذا الدين وجعلها منهج الحياة. فهذا الدين عزائم ورخص. والعزائم هي الأصل والرخص للـملابسات الطارئة.. وبعض الـمخلصين حسني النية، الذين يريدون دعوة الناس إلى هذا الدين، يعمدون إلى (الرخص) فيجمعونها ويقدمونها للناس، على أنها هي هذا الدين.

ويقولون لهم: انظروا كم هو ميسر هذا الدين! وبعض الذين يتملقون شهوات

---

(١) النساء: ٦٦- ٦٨.

(٢) النساء: ٨٧.

السلطان أو شهوات الجماهير، يبحثون عن (منافذ) لهذه الشهوات من خلال الأحكام والنصوص؛ ويجعلون هذه المنافذ هي الدين!

وهذا الدين ليس هذا وليس ذاك. إنما هو بجملته. برخصه وعزائمه. ميسر للناس يقدر عليه الفرد العادي، حين يعزم. ويبلغ فيه تمام كماله الذاتي - في حدود بشريته- كما يبلغ تمام كماله الذاتي في الحديقة الواحدة: العنب والخوخ والكمثرى والتوت والتين والقثاء.. ولا تكون كلها ذات طعم واحد... ولا يقال عن أحدها: إنه غير ناضج - حين يبلغ نضجه الذاتي- إذا كان طعمه أقل مرتبة من النوع الآخر!

في حديقة هذا الدين ينبت البقل والقثاء؛ وينبت الزيتون والرمان، وينبت التفاح والبرقوق، وينبت العنب والتين... وينضج كله؛ مختلفة طعومه ورتبه... ولكنه كله ينضج. ويبلغ كماله المقدر له.. إنها زرعة الله.. في حقل الله.. برعاية الله.. وتيسير الله[1].

أحكام فقهية فيمن حاد عن الشريعة الربانية:

إن الشقاء والتعاسة التي مُني بها أهل الأرض مرجعها نبذ الشريعة الربانية ومعاداتها وحربها وتقتيل أهلها ومتابعة أبنائها باسم الحرب على الإرهاب، وإن الهزائم المتلاحقة التي تنهمر تترًا على العالم الإسلامي خاصة، منشأها الحيدة عن (الحكم بما أنزل الله)، والذي بدوره يتبوأ قمة هذا الدين فقد روى: «**إن عرى الإسلام أعلاها الحكم وأدناها الصلاة**»[2].

وقد سبق في الآيات أن الله ﷻ أقسم بذاته المقدسة على نفي الإيمان عمن تحاكم إلى الطاغوت وهذا فيه إجمال، أما التفصيل منذ اعتنى بهذه المسألة جهابذة العلماء أمثال الشنقيطي – رحمه الله- وقد تقدم كلامه، وأمثال الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي الديار السعودية الأسبق، والعلامة أحمد شاكر – رحمهم الله

---

(١) «الظلال» ص٦٩٧ – ٦٩٩.

(٢) سبق تخريجه.

جميعًا- وننقل هنا منثورات من كلامهم: حيث إن نواقض الإيمان حكرًا على أمثال هؤلاء الجهابذة الربانيين، وليست مسألة التكفير أكلة سائغة لكل من هب ودب من أصحاب الفتاوى ذات البلاوي إنما هي من الخطورة بمكان فقد روى عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ قَالَ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا»(١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾(٢) الظالمون – الفاسقون فهناك كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق أي: أن هناك كفر أكبر ينقل عن الملة وكفر أصغر لا ينقل عن الملة وكذلك في الظلم والفسق.

ويُقَسِّم العلامة محمد بن إبراهيم في فتاويه عن الحكم بالقوانين الوضعية الكفر الأكبر إلى أنواع منها:

النوع الأول: أن يجحد شريعة الله المعلومة من الدين بالضرورة، وقيدنا أن تكون معلومة من الدين بالضرورة؛ لأن من قال: (هذا ليس من الشريعة) جهلاً منه، كمن يقول: (النقاب ليس من الشريعة) - فهو ليس معلومًا من الدين بالضرورة- وكمن يقول (إن اللحية ليست من الشريعة)، لا يكفر بذلك الآن في زماننا؛ لأن كثيرًا من الناس يجهل ذلك، ويظن أن هذا أمر أحدثه المتطرفون مثلاً.

ومن هذا النوع أيضًا –أي: من يجحد شريعة الله المعلومة من الدين بالضرورة- من يقول: لا دين في السياسة، ولا سياسة في الدين، وأن السياسة نظام الحكم لا دخل للدين به، وأن الدين علاقة شخصية بين العبد وربه – تبارك وتعالى- ويعتقد أن الدين شعائر فقط، وينكر أحكام الله في الحدود والمعاملات والأموال والدماء وغيرها، مثل إنكار قطع يد السارق، وجلد الزاني، وحرمة الربا، والقول بأن هذه الأمور ليست من الدين، هذا كله كفر بالإجماع، لا نزاع فيه بين المسلمين.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٥٨٧٨)، ومالك في «موطأه» (١٨٤٤).
(٢) المائدة: ٤٤.

النوع الثاني: أن يعتقد ثبوت الشرع وأنـه أتـى بـذلك – والحقيقـة أن إنكـار أن الشرع أتى بذلك متعذر وقوعه؛ لأن الكفار فضـلاً عـن الـمسلـمين يعلـمون أن الإسلام فيه قطع يد السارق وجلد الـزاني ونحـو هـذا – لكنـه يقـول: إن القـوانين الوضعية أفضل وأكثر مناسبة للزمان من شرائع مضى عليها أربعة عشر قرنًا، ونحو هذا.

وهذا – بالإجماع – كفر أكبر، إذ يُفَضِّل حكم الـمخلوق على الخـالق: ﴿**أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾[١]، وبعض من يقـول بهذا القول يفضل القوانين الوضعية تفضيلاً مطلقًا، فيقول: إنه عندما شرعت هـذه القوانين في الزمان الـماضي كانت هذه وحشـية، والـبعض الآخـر يقـول: إنهـا غـير مناسبة في زماننا، وكانت مناسبة في العصور الوسطى، أمـا الآن فقـد تقـدم النـاس وأصبحنا في القرن الخامس عشر الهجـري، فـلا يجـوز أن نحكـم بقـوانين العصـور الوسطى الـمظلـمة.

وكلا القولين: الذي يفضل القوانين مطلقًا أو يفضلها نسبيًا، فكلاهما يـدخل في إنكار قوله ﷻ: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾[٢].

النوع الثالث: أن يعتقد أن القوانين الوضعية مساوية لحكـم الله ﷻ ومماثلـة لـه، قال تعالى حكاية عن أهل النار: ﴿**تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ**﴾[٣]، والذي يعتقد ذلك مكذب لقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾[٤].

فيقول إن هناك حُسنًا مماثلاً، ليس الله وحده أحسـن حكـمًا، لكـن هـذه حسـنة

---

(١) الـمائدة: ٥٠.

(٢) الـمائدة: ٥٠.

(٣) الشعراء: ٩٧– ٩٨.

(٤) الـمائدة: ٥٠.

وهذه حسنة، كمن يقول نحن في شريعتنا هـذه وأنـتم في شريعـتكم هـذه وكلاهمـا طيب، فإن كنت في بلد يحكم بالشرع التزمتُ بالشريعة، وإن كنتُ في غيرها التزمتُ بقوانين البلد الأخرى، وكلاهما طيب والـمهم الالتزام بالقوانين أيًّا ما كانت، طالـما أن الناس اتفقوا عليها فهي طيبة، وهذا من الكفر الأكبر الـمستبين.

النوع الرابع: أن يعتقد أن شريعة الله أفضل فهو يقول: الله أحسن حُكـمًا، لكنهـا غير واجبة بل يجوز مخالفتها وتركها إلى ما يراه هو عدلاً ومصلحة، ويجـوز الخـروج عن الشريعة، فيرى أن الشريعة غير واجبة، كمن يقول: إن الأخلاق والآداب في ألا تزني الفتاة والفتى، فهذا أمر طيب، ينبغي أن يكون كذلك، ولكن لو زنيًا لا نمنعهما من ذلك، والناس أحرار.

وهذا النوع في الحقيقة كثير جدًّا من الناس من يراه صوابًا، يرى الناس يجـوز أن يتحاكموا إلى شرع الله، ويجوز أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وقد نقل الإجماع على كفر من ترك التحاكم إلى الشرع وتحاكم إلى من يحكم بما يراه هو عدلاً من غير رجوع إلى الشرع شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله– في كتابه «منهاج السـنة النبويـة في الـرد على الشيعة والقدرية»، إذ من الـمعلوم بالضرورة وجوب تنفيذ أحكام الله.

النوع الخامس: وهو من أعظمها وأشملها وأظهرهـا معانـدة لـلشرع ومكـابرة لأحكامه، ومشاقة لله ورسوله ﷺ، وذلك هو مضـاهاة القـوانين الوضـعية بـالحكم الشرعي، والـمضاهاة هي الإلزام في التشريع العام بخـلاف حكـم الله ﷻ، فـالنوع الرابع السابق كان يبيح مخالفة الشرع، أما هذا النوع الخامس فهو يلزم بالقوانين، مع أنه لو سُئل لقال: الشريعة أفضل، لكن يجب أن نلتزم بما اتُفق عليـه، فيُلـزم بسـيادة القانون الوضعي الـمخالف للشرع، ويلزم بمخالفة الشرع في التشريع العام.

فهذا النوع أشد من استحلال القوانين الوضعية؛ لأن هذا إيجـاب الاسـتحلال، فهو يراه واجبًا، يقول الشيخ محمد بن إبراهيم: (فكما أن للـمحاكم الشرعية مراجع مسـتمدات، مرجعهـا كلهـا إلى كتـاب الله وسـنة رسـوله ﷺ، فلهـذه الـــمحاكم

(الوضعية) مراجع هي القانون الملفق من شرائع شتى وقوانين كثيرة، كالفرنسي والأمريكي والبريطاني وغيرها من القوانين، ومن مذاهب بعض البدعيين المنتسبين إلى الشريعة، ونحو ذلك).اهـ.

نقول: مع تأصيل أن الحكم ليس للشرع، وإنما بهذه القوانين، وإلزام الناس بذلك وتحتيمه عليهم.

ونقل الشيخ أحمد شاكر عن ابن كثير – رحمهما الله- إجماع المسلمين على كفر من تحاكم إلى الياسق من التتار.

والياسق: كتاب وضعه جنكيز خان، ثم صار في بنيه شرعًا متبعًا، يقدمونه في التحاكم على الكتاب والسنة، ومعلوم أن التتار بدؤوا أمرهم عباد أوثان مشركين، وجنيكز خان ملكهم المشرك وضع لهم كتاب الياسق الذي هو بداية تكوين دولة التتار بالنظام الشديد الذي وضعه جنكيز خان، وقاتلوا المسلمين وقتلوا منهم ما لا يحصيه إلا الله تعالى، وبعده في عهده هولاكو سقطت بغداد، وبعد هزيمتهم في عين جالوت أسلم بعضهم، ولكن ظلوا يقاتلون المسلمين على ملك جنكيز خان، وظلوا يحكمون بالياسق مع أبناء جنكيز خان، وظلوا يعظمون جنكيز خان رغم أنهم أسلموا في الظاهر.

فقال ابن كثير – رحمه الله- في قوله ﷻ: ﴿**أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ**﴾[1]. ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعت الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم وكما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن ملكهم جينكيز خان الذي وضع لهم (الياسق) وهو عبارة عن مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى: من اليهودية والنصرانية والملة

(١) المائدة: ٥٠.

الإسلامية وغيرها وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت في بنية شرعًا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾[1] أي: يبتغون ويريدون وعن حكم الله يعدلون. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[2]، أي: ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل شرعه وآمن به وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها فإنه تعالى هو العالم بكل شيء القادر على كل شيء العادل في كل شيء.اهـ.

وبعد أن نقل ابن كثير في «البداية والنهاية» شيئًا من سخافات هذا الياسق مثل: (من سرق يقتل، من زنا يقتل، من قتل يقتل)، قال ابن كثير: فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله ﷺ وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة؛ كفر، فكيف بمن تحاكم إلى (الياسق)، وقدمه عليه؟! من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين.اهـ.

قال الشيخ الشنقيطي: إن الذين يتبعون القوانين التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله ﷻ على ألسنة رسله صلى الله عليهم وسلم، أنه لا يشك في كفرهم وشركهم، إلا من طمس الله بصيرته، وأعماه عن نور الوحي مثلهم.أهـ.

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي الديار السعودية الأسبق: (إن من الكفر الأكبر المستبين: تنزيل القانون اللعين، منزلة ما نزل به الروح الأمين، على قلب رسوله ليكون من المنذرين، بلسان عربي مبين، في الحكم به بين العالمين، والرد إليه عند تنازع المتنازعين).اهـ.

---

(١) المائدة: ٥٠.

(٢) المائدة: ٥٠.

ولقد بين الشيخ أحمد شاكر والشيخ محمود شاكر، ضلال من يقـول: إن تحكـيم القوانين الوضعية في التشريع العام كفرٌ دون كفر، وأنها من جنس مـا قـال فيـه ابـن عباس – – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا– لـمن كانوا يسألونه من الخوارج ويسـتدلون عـلى كفـر حُكـام بنـي أميـة بقولـه تعـالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1]، فقال فيه ابن عباس: (كفر دون كفر).

ولاشك أنه لـم يقع في عهد بنـي أميـة ولا في عهـد بنـي العبـاس ولا وُجِدَ في التاريخ الإسلامي من يأتي بتشريع مخالف لشرع الله ﷻ ويلزم الناس به.

قال الشيخ الشنقيطي – رحمه الله–: اعلـم أنه يجب التفصيل بين النظام الوضعي الذي يقتضي تحكيمه الكفر بخالق السماوات والأرض، وبين النظام الذي لا يقتضي ذلك، وإيضاح ذلك أن النظام قسمان: إداري وشرعي:

أما الإداري:

الذي يُراد به ضبط الأمور وإتقانها على وجهٍ غير مخـالف لـلشرع فهـذا لا مـانع منه، كتنظيم شئون الـموظفين، وتنظيم إدارة الأعمال عـلى وجـه لا يخـالف الشرع، ولا يخرج من قواعد الشرع مع مراعاة الـمصالح العامة.

وأما النظام الشرعي:

الـمخالف لتشريع خالق السماوات والأرض فتحكيمه كفـر بخـالق السـماوات والأرض، كدعوى أن تفضيل الذكر على الأنثى في الـميراث ليس بإنصاف، وأنهـما يلزم استواؤهما في الـميراث، وكـدعوى أن تعـدد الزوجـات ظلـم، وأن الطـلاق ظلـم للـمرأة، وأن الرجم والقطع ونحوهما أعمال وحشية لا يسوغ فعلها بالإنسان، ونحـو ذلـك، فتحكـيم هـذا النـوع مـن النظـام في أنفـس الــمجتمع، وأمـوالهم، وأعراضهم، وأنسابهم، وعقولهم، وأبدانهم، كفر بخالق السماوات والأرض، وتمـرد

---

(١) الـمائدة: ٤٤.

على نظام السماء الذي وضعه خالق الخلائق لها، وهو أعلم بمصالحهم، سبحانه وتعالى عن أن يكون معه مُشرِّعٌ آخر علوًا كبيرًا.اهـ.

النوع السادس:

هو مثل النوع الخامس، ولكنه غير مسجل كقانون مكتوب، وهو ما يحكم به كثير من رؤساء العشائر والقبائل من البوادي وغيرهم من حكايات تلقوها عن آبائهم وأجدادهم، يعلمون مخالفتها للشرع، ويقدمونها في الحكم على شرع الله إعراضًا عن حكم الله.

ومثال هذا ما يوجد في القبائل العربية في جلسات التحكيم العرفية، من أناس جهلة يحفظون شرعة (أولاد علي)، وبعد أن وجدت الدعوة وانتشر تحكيم الشرع ربما يجيزون الناس إذا تخاصموا ويقولون: (تريدون شرع الله أم شرعة أولاد علي)، فيقولون لهم: (شرع أولاد علي) – مثلاً- أو (شرع الله لا يحل المشكلة، أو يوقعهم في الوحل)!

❁ تنبيه هام:

هذه النقولات السابقة التي تصرح بالكفر الأكبر الناقل عن الملة مقصودها الكفر من حيث نوعه أي بشكل عام لا تخص به شخصًا بعينه، أما الكفر الأكبر الموجه إلى شخص بعينه (كفر المعيّن) إنما هي لقضاة العلم الربانيين أيضًا وذلك بعد نظرهم في استيفاء الشروط وانتقاء الموانع في مسألة التكفير، والشروط مثل: العلم، البلوغ، العقل، القصد، التذكر، الاختيار، التأويل، والموانع ضدها وهي: الجهل، الصغر، الجنون، الخطأ، النسيان، الإكراه، التأويل.

ولا يعني التدقيق والتحري الدقيق في هذه المسألة أن يغلق باب الردة، إلى الأبد لا، إن هذه الفعلة فعلها فرقة ضالة من فرق المسلمين، وهي (المرجئة) فيدّعون أنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وذلك ردًا على ما فعلته الخوارج الذين يكفِّرون بالمعاصي، وكان الحق وسطًا بين مغالاة الخوارج

وجفاء الـمرجئة، وهكذا السنة بين الغالي والجافي.

إن ظاهرة الإرجاء وتفشيها في وسط العلماء لا تقل خطورة عن ظاهرة التسرع في التكفير بلا ضوابط والتي تشبه إلى حد ما نهج الخوارج، فقد تركنا ﷺ على الـمحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك فهي واضحة بينة في وقت الشدة والرخاء على السواء في وقت الفتن والـمحن كما في وقت النصر والـمنح فهي كما قال ﷺ ليلها كنهارها.

❊ ❊ ❊

(٩)

(مناظرة في الربوبية)

فرعون يسأل وموسى عليه السلام يجيب

سبقت مناظرات خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام تارة مع أبيه وتارة مع قومه وأخرى مع طاغية عصره وخلدها الله عز وجل في كتابه الكريم لتكون دستورًا ومرجعًا إلى يوم الدين، ومما خلده القرآن أيضًا مناظرة كليم الرحمن مع رأس الطغيان (فرعون) الذي ادَّعى (الربوبية) فقال: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1] وادعى الإلوهية فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[2].

وهذه المناظرة ذكرت في موضعين من كتاب الله عز وجل، وفي الموضعين تبدأ المناظرة بسؤال من الطاغية إلى نبي الله موسى عليه السلام.

ففي سورة الشعراء: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾[3].

وفي سورة طه: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟

---

(١) النازعات: ٢٤.

(٢) القصص: ٣٨.

(٣) الشعراء: ٢٣-٢٩.

أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾[١].

وتكرار لفظ الرب ومشتقاته واضح في الـموضعين:

فأول إجابة من موسى عليه السلام في آيات سورة الشعراء.

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾[٢].

أي: خالق جميع ذلك ومالكه والـمتصرف فيه، وإلهه لا شريك له، خلق الأشياء كلها العالـم العلوي ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وما فيه من الكواكب النيرات، الثوابت والسيارات، والعالـم السفلي ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ وما فيه من بحار وأنهار وقفار وجبال وأشجار وحيوانات ونبات وثمار، وما بين ذاك من الـمخلوقات التي يعلـم كل مؤمن أنها لـم تخلق نفسها ولابد لها من موجد ومحدِث وخالق وهو الله الذي لا إله غيره ولا رباً سواه ثم انتقل كليم الرحمن عليه السلام من ربوبية العالـم العلوي والسفلي إلى ربوبية الناس جمعاً،وهو ترتيب منطقي فالله سبحانه خلق السماوات والأرض أولاً ثم هيئها لحياة الإنسان.

﴿قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[٣] أي: خلقكم والذين من قبلكم ومع هذا كله لـم يستفق فرعون من رقدته ولا نزع عن ضلالته بل استمر على طغيانه وعناده وكفرانه.

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾[٤] أي: ليس له عقل في دعواه أن ثم رباً غيري.

﴿قَالَ﴾ أي: موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبه

---

(١) طه: ٤٩-٥٤.

(٢) الشعراء: ٥٤.

(٣) الشعراء:٢٦.

(٤) الشعراء: ٢٧.

فأجاب موسى ﷺ بقوله ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[١] أي: هو الذي جعل الشرق مشرقاً تطلع منه الكواكب، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب ثوابتها وسيارتها مع هذا النظام الذي سخرها فيه وقدرها وهو الله لا إله إلا هو خالق الظلام والضياء ورب الأرض والسماء رب الأولين والآخرين، خالق الشمس والقمر والكواكب السائرة والثوابت الحائرة،خالق الليل بظلامه والنهار بضيائه والكل تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون وكل في فلك يسبحون، يتعاقبون في سائر الأوقات ويدورون، فهو تعالى الخالق المالك المتصرف في خلقه بما يشاء. فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً فليعكس الأمر وليجعل المشرق مغرباً والمغرب مشرقاً، والثابت سائراً والسائر ثابتاً كما قال تعالى عن الذي حاج إبراهيم في ربه.

ولما قامت الحجج على فرعون وذهبت شبهه وغلب وانقطعت حجته ولم يبقى له قول سوى العناد عدل إلى استعمال جاهه وقوته، وسلطانه وسطوته،واعتقد أن ذاك نافع له ونافذ في موسى ﷺ فقال وظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾[٢] إلى أخر ما قص الله ﷻ عنه،حتى قصمه الله تعالى قاصم الجبابرة وأخذه أخذ عزيز مقتدر. ومناظرة الرسل لأعداء الله في هذا الباب يطول ذكرها ومقامات نبينا محمد ﷺ مع هذه الأمة أشهر من أن تذكر.

وقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾[٣].

ليست ملكًا للطغاة والجبابرة ولا للأثرياء والأغنياء هي ملك لرب الأرض والسماء، فقد خول الله ﷻ كثيراً من الملوك الذين ملكوا الأرض كلها في السنين

---

(١) الشعراء: ٢٨.

(٢) الشعراء: ٢٩.

(٣) الشعراء: ٢٨.

الغابرة ولكن أين هم الآن....! ﴿كُل مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[1]

أما في موضع صورة طه فيجيب موسى عن سؤال فرعون أيضاً بقوله: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[2].

ربنا الذي وهب الوجود لكل موجود في الصورة التي أوجده بها وفطره عليها. ثم هدى كل شيء إلى وظيفته التي خلقه لها؛ وأمده بما يناسب هذه الوظيفة ويعينه عليها. وثم هنا ليست للتراخي الزمني. فكل شيء مخلوق ومعه الاهتداء الطبيعي الفطري للوظيفة التي خلق لها، وليس هناك افتراق زمني بين خلق المخلوق وخلق وظيفته. إنما هو التراخي في الرتبة بين خلق الشيء واهتدائه إلى وظيفته؛ فهداية كل شيء إلى وظيفته مرتبة أعلى من خلقه غفلاً..

وهذا الوصف الذي يحكيه القرآن الكريم عن موسى عليه السلام يلخص أكمل آثار الإلوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود: هبة الوجود لكل موجود.. وهبة خلقه على الصورة التي خلق بها.

وهبة هدايته للوظيفة التي خلق لها.. وحين يجول الإنسان ببصره وبصيرته - في حدود ما يطيق- في جنبات هذا الوجود الكبير تتجلى له آثار تلك القدرة المبدعة المدبرة في كل كائن صغير أو كبير. من الذرة المفردة إلى أضخم الأجسام، ومن الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة في الإنسان.

هذا الوجود الكبير المؤلف مما لا يحصى من الذرات والخلايا، والخلائق والأحياء؛ وكل ذرة فيه تنبض، وكل خلية فيه تحيا، وكل حي فيه يتحرك، وكل كائن فيه يتفاعل أو يتعامل مع الكائنات الأخرى.. وكلها تعمل منفردة ومجتمعة داخل إطار النواميس المودعة في فطرتها وتكوينها بلا تعارض ولا خلل ولا فتور في

---

(١) الرحمن: ٢٦-٢٧.

(٢) طه: ٥٠.

لحظة من اللحظات!

وكل كائن بمفرده كون وحده وعالـم بذاته، تعمل في داخله ذراته وخلاياه وأعضاؤه وأجهزته وفق الفطرة التي فطرت عليها، داخل حدود الناموس العام، في توافق وانتظام.

وكل كائن بمفرده ودعك من الكون الكبير يقف علـم الإنسان وجهده قاصراً محدوداً في دراسة خواصه ووظائفه وأمراضه وعلاجه. دراستها مجرد دراسة لا خلقها ولا هدايتها إلى وظائفها، فذلك خارج كلية عن طوق الإنسان. وهو خلق من خلق الله.. وهبه وجوده، على الهيئة التي وجد بها؟ للوظيفة التي خلق لها، كأي شيء من هاته الأشياء!

إلا أنه للإله الواحد.. ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.. وثنى فرعون بسؤال آخر: ﴿قَالَ: فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ؟﴾[1].

ما شأن القرون التي مضت من الناس؟ أين ذهبت؟ ومن كان ربها؟ وما يكون شأنها وقد هلكت لا تعرف إلهها هذا؟

﴿قَالَ: عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[2]. بهذا أحال موسى ذلك الغيب البعيد في الزمان. الخافي عن العيان، إلى ربه الذي لا يفوت علـمه شيء ولا ينسى شيئاً. فهو الذي يعلـم شأن تلك القرون كله. في ماضيها وفي مستقبلها.

والغيب لله والتصرف في شأن البشر لله، ثم يستطرد فيعرض على فرعون آثار تدبير الله في الكون وآلائه على بني الإنسان. فيختار بعض هذه الآثار الـمحيطة بفرعون، الـمشهودة له في مصر ذات التربة الخصبة والـماء الـموفور والزروع

---

(١) طه: ٥١.

(٢) طه: ٥٢.

والأنعام: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾[1].

والأرض كلها مهد للبشر في كل مكان وزمان. مهد كمهد الطفل. وما البشر إلا أطفال هذه الأرض. يضمهم حضنها ويغذوهم درها! وهي ممهدة لهم كذلك للسير والحرث والزرع والحياة. جعلها الخالق الـمدبر كذلك يوم أعطى كل شيء خلقه. فأعطى هذه الأرض خلقها على الهيئة التي خلقت بها صالحة للحياة التي قدرها فيها؛ وأعطى البشر خلقهم كذلك على الهيئة التي خلقهم بها صالحين للحياة في هذه الأرض التي مهدها لهم وجعلها مهدهم.. الـمعنيان متقاربان متصلان، وصورة الـمهد وصفة التمهيد لا تبدو في بقعة من الأرض كما تبدو في مصر. ذلك الوادي الخصيب الأخضر السهل الـممهد الذي لا يحوج أهله إلا إلى أيسر الكد في زرعه وجناه. وكأنما هو الـمهد الحاني على الطفل يضمه ويرعاهم، والخالق الـمدبر الذي جعل الأرض مهداً، شق للبشر فيها طرقاً وأنزل من السماء ماء. ومن ماء الـمطر تتكون الأنهار وتفيض ومنها نهر النيل القريب من فرعون فيخرج النبات أزواجاً من أجناس كثيرة. ومصر أظهر نموذج لإخراج النبات لطعام الإنسان ورعي الحيوان.

وقد شاء الخالق الـمدبر أن يكون النبات أزواجاً كسائر الأحياء. وهي ظاهرة مطردة في الأحياء كلها. والنبات في الغالب يحمل خلايا التذكير، وخلايا التأنيث في النبتة الواحدة وأحياناً يكون اللقاح في نبتة ذكر منفردة كما هو الحال في الفصائل الحيوانية. وبذلك يتم التناسق في نواميس الحياة ويطرد في كل الفصائل والأنواع.. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾[2].

---

(١) طه: ٥٣- ٥٤.

(٢) طه: ٥٤.

وما من عقل مستقيم يتأمل هذا النظام العجيب ثم لا يطلع فيه على آيات تدل على الخالق المدبر الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى[١].

وتدبير الله ﷻ للكائنات باب عظيم من أبواب الأيمان، فمن فتحه رأى فيه عجائب المخلوقات ورأى فيه الميزان الحكيم والاتزان العجيب الذي قام عليه خلق السماوات والأرض ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾[٢].

سياحة في مملكة الخالق المدبر:

وصف الله تبارك وتعالى المؤمنين والمؤمنات بالسياحة في موضعين من كتابه فقال تعالى واصفاً المؤمنين ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣]

فقال تعالى واصفًا المؤمنات ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٤].

والواضح من أقوال المفسرين في معنى ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ- سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ هم المتفكرون والمتفكرات في خلق الأرض والسماوات.

وأنت مدعو أيها الأخ الكريم (السائح) وأنت أيضاً أيتها الأخت الكريمة (السائحة) إلى رحلة عجيبة في ممالك غريبة من ممالك الخالق المالك المدبر، ليست إلى البحار والأنهار، أو الجبال والوديان،وليست إلى الحدائق

---

(١) «الظلال» ٤/ ٢٣٣٩.

(٢) الرحمن: ٧.

(٣) التوبة: ١١٢.

(٤) التحريم: ٥.

والغابات،وليست إلى أفق السماء حيث النجوم والـمجرات، إنما هي رحلة في (عالـم الحشرات) أخص فيه مملكتي النمل والنحل والتي سميت باسمهما سورتان كبيرتان من سور القران.

يصحبنا في هذه الرحلة العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه (شفاء العليل)، والأستاذ محمد حسن الحمصي في كتابه (النملة تسبح) أما قائدنا في هذه الرحلة فهو د/ عمر سليمان الأشقر حفظه الله في كتابه (العقيدة في الله).

يقول تحت عنوان هداية النمل.......هداية النحل

ويحدثنا ابن القيم [1] - رحمه الله- تعالى عن بدائع صنع الله في خلقه، مبيناً هداية الله للنحل في أمور معاشه: (وأمر النحل في هدايتها من أعجب العجب وذلك أن لها أميراً ومدبراً،وهو اليعسوب، وهو أكبر جسماً من جميع النحل، وأحسن لوناً وشكلاً).

وإناث النحل تلد في إقبال الربيع، وأكثر أولادها يكن إناثا،وإذا وقع فيها ذكر لـم تدعه بينها، بل إما أن تطرده، وإما أن تقتله، إلا طائفة يسيرة منها وذلك أن الذكور منها لا تعمل شيئاً ولا تكسب.

والنحل تقسم فرقاً فرقاً، فمنها فرقة تلزم الـملك، ولا تفارقه، ومنها فرقة تهيئ الشمع وتصنعه، والشمع هو ثفل العسل، وفيه حلاوة كحلاوة التين، وللنحل فيه عناية شديدة فوق عنايتها بالعسل، فينظفه النحل، ويصفيه، ويخلصه مما يخالطه من أبوالها وغيرها، وفرقة تبني البيوت، وفرقة تسقي الـماء، ونحمله على متونها، وفرقة تكنس الخلايا وتنظفها من الأوساخ والجيف والزبل، وإذا رأت بينها نحلة مهينة بطالة قطعتها وقتلتها حتى لا تفسد عليهن بقية العمال، وتعديهن ببطالتها ومهانتها.

---

(١) «شفاء العليل» ص١٠١، وما نقلناه عن ابن القيم يدلنا على أن السلف الصالح كانوا يعنون بالتأمـل في خلـق الله، ويدلنا على أن ملاحظة العلـماء الـمسلـمين بلغت مبلغاً كبيراً، إلا إنها لـم تخل من أخطاء، فالنحل لـيس له ملك بل ملكة.

وأول ما يبنى في الخلية مقعد الـملك وبيته، فيبنى له بيت مربع يشبه السرير والتخت، فيجلس عليه، ويستدير حوله طائفة من النحل يشبه الأمراء والخدم والخواص، لا يفارقنه، ويجعل النحل بين يديه شيئًا يشبه الحوض يصب فيه من العسل أصفى ما يقدر عليه، ويملأ منه الحوض، ويكون ذلك طعامًا للـملك وخواصه.

ثم يأخذن في ابتناء البيوت على خطوط متساوية كأنها سكك ومحال، وتبني بيوتها مسدسة متساوية الأضلاع، كأنها قرأت كتاب إقليدس، حتى عرفت أوفق الأشكال لبيوتها؛ لأن الـمطلوب من بناء الدور هو الوثاقة والسعة، والشكل الـمسدس دون سائر الأشكال إذا انضمت بعض أشكاله إلى بعض صار شكلاً مستديرًا كاستدارة الرحى، ولا يبقى فيه فروج ولا خلل، ويشد بعضه بعضًا، حتى يصير طبقًا واحدًا محكمًا، لا يدخل بين بيوته رءوس الإبر.

فتبارك الذي أهمها أن تبني بيوتها هذا البناء الـمحكم الذي يعجز البشر عن صنع مثله، فعلـمت أنها محتاجة إلى أن تبني بيوتها من أشكال موصوفة بصفتين:

إحداهما: أن لا تكون زوايها ضيقة حتى لا يبقى الـموضع الضيق معطلاً.

والثانية: أن تكون تلك البيوت مشكلة بأشكال إذا انضم بعضها إلى بعض، وامتلأت العرصة منها فلا يبقى منها ضائعًا، ثم إنها علـمت أن الشكل الـموصوف بهاتين الصفتين هو الـمسدس فقط؛ فإن الـمثلثات والـمربعات، إن أمكن امتلاء العرصة منها إلا أن زواياها ضيقة، وأما سائر الأشكال إن كانت زواياها واسعة إلا أنها لا تمتلئ العرصة منها إلا أن زواياها ضيقة، وأما سائر الأشكال إن كانت زوايها واسعة إلا أنها لا تمتلئ العرصة منها، بل يبقى فيما بينها فروج خالية ضائعة، وأما الـمسدس فهو موصوف بهاتين الصفتين، فهداها – سبحانه – إلى بناء بيوتها على هذا الشكل من غير مسطرة ولا آلة، ولا مثال يحتذى عليه، وأصنع بني آدم لا يقدر على بناء البيت الـمسدس إلا بالآلات الكبيرة.

فتبارك الذي هداها أن تسلك سبل مراعيها على قوتها وتأتيها ذللاً لا تستعصي عليها، ولا تضل عنها، أن تجتني أطيب ما في المراعي وألطفه، وأن تعود إلى بيوتها الخالية، فتصب فيها شرابًا مختلفًا ألوانه، فيه شفاء للناس، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون.

فإذا فرغت من بناء البيوت خرجت خماصًا تسيح سهلاً وجبلاً، فأكلت من الحلاوات المرتفعة على رءوس الأزهار وورق الأشجار، فترجع بطانًا.

وجعل – سبحانه- في أفواهها حرارة منضجة تنضج ما جنته، فتعيده حلاوة ونضجًا، ثم تمجه في البيوت، حتى إذا امتلأت ختمتها، وسدت رءوسها بالشمع المصفى، فإذا امتلأت تلك البيوت عمدت إلى مكان آخر إن صادفته، فاتخذت فيه بيوتًا، وفعلت كما فعلت في البيوت الأولى، فإذا برد الهواء، وأخلف المرعى، وحيل بينها وبين الكسب، لزمت بيوتها، واغتذت بما ادخرته من العسل، وهي في أيام الكسب والسعي تخرج بكرة وتسيح في المراتع، وتستعمل كل فرقة منها بما يخصها من العمل، فإذا أمست رجعت إلى بيوتها.

وأما الملك فلا يكثر الخروج من الخلية إلا نادرًا إذا اشتهى التنزه، فيخرج، ومعها أمراء النحل والخدم، فيطوفُ في المروج والرياض والبساتين ساعة من النهار، ثم يعود إلى مكانه.

ومن عجيب أمره أنه ربما لحقه أذى من النحل أو من صاحب الخلية أو من خدمه، فيغضب ويخرج من الخلية، ويتباعد عنها، ويتبعه جميع النحل، وتبقى الخلية خالية.

فإذا رأى صاحبها ذلك، وخاف أن يأخذ النحل، ويذهب بها إلى مكان آخر احتال لاسترجاعه وطلب رضاه، فيتعرف موضعه الذي صار إليه بالنحل، فيعرفه باجتماع النحل إليه، فإنها لا تفارقه، وتجتمع عليه حتى تصير عليه عنقودًا، وهو إذا خرج غضبًا جلس على مكان مرتفع من الشجرة، وطافت به النحل، وانضمت إليه،

حتى يصير كالكرة، فيأخذ صاحب النحل رمحًا أو قصبة طويلة، ويشد على رأسه حزمة من النبات الطيب الرائحة العطر النظيف، ويدنيه إلى محل الـملك، ويكون معه إما مزهر أو يراع أو شيء من آلات الطرب فيحركه، وقد أدنى إليه ذلك الحشيش، فلا يزال كذلك إلى أن يرضى الـملك، فإذا رضي وزال غضبه طفر ووقع على الضغث، وتبعه خدمه وسائر النحل، فيحمله صاحبه إلى الخلية، فينزل ويدخلها هو وجنوده، ولا يقع النحل على جيفة ولا حيوان ولا طعام.

ومن عجيب أمرها أنها تقتل الـملوك الظلـمة الـمفسدة، ولا تدين لطاعتها، والنحل الصغار الـمجتمعة الخلق هي العسالة، وهي تحاول مقاتلة الطوال القليلة النفع وإخراجها ونفيها عن الخلايا، وإذا فعلت ذلك جاد العسل، ونجتهد أن تقتل ما تريد قتله خارج الخلية صيانة للخلية عن جيفته.

ومنها صنف قليل النفع كبير الجسم، وبينها وبين العسالة حرب، فهي تقصدها وتغتالها وتفتح عليها بيوتها، وتقصد هلاكها، والعسالة شديدة التيقظ والتحفظ منها، فإذا هجمت عليها في بيوتها حاولتها وألجأتها إلى أبواب البيوت فتتلطخ بالعسل، فلا تقدر على الطيران، ولا يفلت منها إلا كل طويل العمر، فإذا انقضت الحرب وبرد القتال عادت إلى القتلى، فحملتها وألقتها خارج الخلية.

وفي النحل من ألطف الحيوان وأنقاه، ولذلك لا تلقي زبلها إلا حين تطير، وتكره النتن والروائح الخبيثة، وأبكارها وفراخها أحرس وأشد اجتهادًا من الكبار، وأقل لسعًا وأجود عسلاً، ولسعها إذا لسعت أقل ضررًا من لسع الكبار.

ولـما كانت النحل من أنفع الحيوان وأبركه فقد خصت من وحي الرب تعالى وهدايته بما لـم يشركها فيه غيرها، وكان الخارج من بطونها مادة الشفاء من الأسقام والنور الذي يضيء في الظلام بمنزلة الهداة من الأنام كان أكثر الحيوان له أعداء، وكان أعداؤه من أقل الحيوان منفعة وبركة، هذه سنة الله في خلقه وهو العزيز الحكيم.

الباحثون المعاصرون يتحدثون عن عالم النحل:

تقدم العلـم اليوم، وبتقدمه تعرفنا على كثير من عجائب الخلق وأسرار الكون، لقد أكد لنا العلـماء ما عرفناه من قبل من أن عالـم النحل ينقسم إلى ثلاثة أقسام: النحلة الـملكة، والنحلة الذكر، والنحلة الشغالة.

أما ملكة النحل فهي أم الخلية كلها، وجميع النحل في الخلية أبناؤها، ويكفي أن تعلـم أن الـملكة تضع في كل يوم تطلع فيها الشمس ما بين (١٥٠٠) بيضة إلى (٢٠٠٠) بيضة، بل يزيد العدد إلى (٣٥٠٠) بيضة. ويستمر هذا على امتداد موسم التكاثر الذي يبدأ من إقبال الربيع، وينتهي بانتهاء الصيف.

وما هذا العدد الهائل من البيض إلا لـمواجهة النقص الـمستمر الذي يصيب خلية النحل، فالنحلة عمرها قصير، فهو يتراوح بين خمسة أسابيع وسبعة أسابيع، ولذلك فإن الخلية تحتاج إلى أجيال جديدة ترفد الخلية بأعداد كبيرة تواجه النقص الذي يلحق بها، كي تستمر الخلية في القيام بالواجبات التي يحتاج إليها عالـم النحل، وحتى تستطيع الدفاع عن نفسها في مواجهة الأعداء والأخطار، ولولا ذلك لانقرضت الخلية وبادت.

ومن بديع صنع الله في ملكة النحل أنها تضع بيضها في البيوت التي تبنيها الشغالة بمقاسات مختلفة، فالـمقاس الكبير يعده النحل الـمكلة الـمستقبل والبيضة التي تضعها الـملكة فيه تكون ملكة، والبيضة التي تضعها الـملكة، البيت الأصغر حجمًا ومقاسه ربع إنش تصبح نحلة ذكرًا، أما البيضة التي تضع في البيت الأصغر حجمًا ومقاسه إنش فتنتج نحلة شغالة، بقي أن نعلـم الـملكة تضع مع بيضة النحلة الشغالة ثلاثة إلى أربعة حيوانات منوية لإخصابها فتكون نحلة شغالة، بينما تضع، في بيت النحلة الذكر بيضة غير مخصبة.

ومن عجيب صنع الله في النحلة الـملكة أنها لا تُلقحُ إلا في الهواء في أثناء طيرانها،و لذلك سر عجيب، فالنحلة الذكر لا يمكنها تلقيح الـملكة وهي رابضة

على الأرض، ذلك أن عضو التذكير عندها كامن، ولا يمكن ظهوره إلا إذا حلقت في الفضاء، وعند ذلك تمتلئ أكياس موجودة في النحلة الذكر بالهواء فتنتفخ في أثناء الطيران، ويؤدي انتفاخها إلى الضغط على عضو التذكير فيخرج من مكمنه.

ومن عجائب صنع الله في الـملكة العذراء قدرتها على دعوة الذكر لتلقيحها وذلك بأصوات تصدرها تدعو بها الذكور إليها، وتخرج من خليتها حائرة حولها مصدرة تلك الأصوات، وتستقبل الذكور هذه الدعوة لا في الخلية وحدها، بل في جميع الخلايا الـمجاورة، وتنطلق أسراب الذكور خلف الـملكة، وهي تغذ السير منطلقة في الفضاء الرحب، ويفوز بتلقيحها أَوْفَى الذكور وأشدها وأسرعها، ولكنه يفقد حياته بعد ذلك، ذلك أنه بعد تلقيح الـملكة يفقد عضو تذكيره، إذ يبقى عضوه فيها مما يسبب له نزيفًا يفقده حياته.

ويسأل القارئ عن كيفية سماع الذكور لدعوة الـملكة، والجواب: أن زود كل نحلة بقرني استشعار، وهذان القرنان يتألفان من حلقات متصل بعضها ببعض، عليها عدد كبير من الثقوب، ويبلغ عدد الحلقات في الذكر اثنتا عشرة حلقة، في حين أن عددها في الشغالة أو الـملكة إحدى عشرة حلقة.

وتبلغ عدد ثقوب الحواس الكائنة على قرن الاستشعار عند الذكر (٢٨٠٠) ثقبٍ، وفي الشغالة (٢٤٠٠)، وفي الـملكة (١٦٠٠).

والحقيقة أن قرني الاستشعار في النحلة بمنزلة هوائي الإذاعة يستخدمه لالتقاط الأصوات الصادرة من الـملكة، ولغير ذلك من الأصوات، كما تستخدمه في الشم والسمع واللـمس.

وإذا فقدت النحلة الشغالة أو الذكر أو الـملكة قرني الاستشعار فإنها لا تستطيع أن تقوم بدورها، ففيه يتركز معظم حواسها: السمع والشم واللـمس كما سبق.

وتكون النحلة الذكر يتناسب مع الـمهمة التي خلق من أجلها، فهو كبير قوي، يأكل كثيرًا، ولا يعمل شيئًا، فلا يجمع الرحيق، ولا يصنعه، ولا يبني، ولا يحرس،

حتى طعامه، تضعه النحلة الشغالة في فمه، كل ما يستطيع القيام به هو تلقيح الـملكة، ولذا فإن النحلة الشغالة بعد انتهاء مهمته تمتنع عن إمداده بالغذاء، وأكثر من هذا تهاجم الشغالة الذكور فتقتلها أو تطردها.

أما النحلة الشغالة فإنها تكون العدد الأكثر في الخلية، كما أنها العنصر الفعال فيها، وهي التي تقوم بالأعمال الـمختلفة، والـمهمات الصعبة.

فهي التي تجني الرحيق، وتجمع غبار الطلع، وتصنع العسل، وتمد الـملكة بغذائها الخاص، وتبني الأقراص التي يحفظ فيها العسل، وتربي فيها الأجيال الجديدة من النحل، وتحرص الخلية، وتقوم بتنظيفها، والـمحافظة عليها، بل تقوم بتهويتها وتدفئتها.

والـمهمات في الخلية موزعة في تخصصات وهذه التخصصات ترتبط بعمر النحلة، فلكل سن من النحل عمل يقوم به، وكلـما امتد العمر بالنحلة فإنها تتحول إلى عمل آخر، وبذلك تقوم النحلة بعد أن تستكمل عمرها بالـمرور على كل الأعمال والـمهمات التي تحتاج إليها الخلية، ويلاحظ أن النحلة تبدأ بالأعمال السهلة التي لا تحتاج إلى جهد كبير، وتنتهي إلى أشق الأعمال وأصعبها وهي الجولان في الحقول، وجني الرحيق وغبار الطلع والـماء، ثم صنع العسل وتخزينه، ونلاحظ أيضًا أنها تتدرج في الوظائف بحسب تكامل الخصائص التي يهبها الله إياها، فكل مهمة تصير إليها وتعمل فيها التواءم مع تكامل أجهزتها التي تمكنها من القيام بالدور الجديد والـمهمة الجديدة.

فالنحلة الشغالة في يومها الأول والثاني تقوم بمهمة تنظيف البيوت التي خرجت منها أجيال النحل التي تكامل خلقها، فتنظف هذه البيوت، وتعدها لأجيال أخرى، ولا تضع الـملكة البيض في هذه البيوت إلا بعد أن تتفحصها وتجدها نظيفة تمامًا.

وفي يومها الثالث والرابع تقوم بدور الحاضنة ليرقات النحل الشغالة والذكور

التي يزيد عمرها على ثلاثة أيام، فتقدم لها ما يسميه العلماء (بحبر النحل) وهو مزيج من العسل وحبوب اللقاح، تأخذه مما خزنته النحل في العيون السداسية.

وبعد اليوم الخامس حتى اليوم الثاني عشر من عمل النحلة تقوم بتغذية النحلة الملكة بالغذاء الملكي طيلة عمرها، كما تمد بهذا الغذاء الفاخر صغيرات الشغالة والذكور في يومهن الأول والثاني والثالث، والنحل يقوم بهذه المهمة في هذه السن (٥ – ١٢) لنمو غدد خاصة في هذه الفترة في جنبي البلعوم، تتمكن بها النحل من صناعة الغذاء الملكي.

وبعد اليوم الثاني عشر تتمكن النحلة من الطيران، ولكنها لا تذهب بعيدًا، كل ما تفعله أن تتعلم وتتمرن، ومهمتها الرئيسية من اليوم الثاني عشر الى اليوم الثامن عشر هو بناء الأقراص الشمعية التي تعد لتخزين العسل، وتربية أجيال النحل الجديدة.

والسبب في تخصصها بهذا الدور في هذه السن هو نمو أربعة أزواج من الغدد الموجودة على حلقات البطن، ومن هذا الشمع تقوم النحلة باستخدام فكيها في هذا السن ببناء تلك البيوت التي بلغت الغاية في الدقة والإتقان بأبعاد محددة وأشكال هندسية في غاية الروعة والتنظيم.

وفي اليوم التاسع عشر واليوم العشرين تقوم النحلة بتنظيف الخلية وحراستها، وبعد اليوم العشرين تقوم النحلة بالانطلاق إلى الحقول وجمع الرحيق وغبار الطلع وصنع العسل،وجلب الماء إلى الخلية،وهذه المرحلة الأخيرة تمثل الجزء الأكبر من عمر النحلة.

أجيال تذهب من النحل، وأجيال تأتي، ويترقى النحل في سلسلة متوالية من الأعمال تضمن القيام بالأعمال كلها باستمرار من غير أن تتخصص طائفة من النحل بعمل طيلة عمرها، ولكن التخصص يأتي في كل مرحلة من مراحل العمر.

سبحان الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي خلق هذه الكائنات الصغيرة،

وعلـمها أن تقوم بهذه الأعمال بمثل هذه الدقة والإتقان، أنه إبداع وإعجاز يدل على العليم الخبير.

ومن الإبداع الإلهي في النحلة هذا التكوين الذي أعطاه الله إياها، فقد جعل لها الباري سبحانه معدتين، إحداهما تستعملها لجمع الـمواد الأولية التي تستخلصها من رحيق الأزهار، أو تحمل بها الـماء، وتنقله إلى الخلية، والـمعدة الأخرى مخصصة للطعام الذي تهضمه وتتغذى به.

ومن عجب أن النحلة إذ تجمع في معدتها الأولى ما تجنيه من الرحيق، لا تكتفي بنقله، ولكنها في أثناء جملها له وتوصيله إلى الخلية تقوم بعملية أولية لتحويله إلى العسل، وذلك بإفراز الخمائر اللازمة لتحقيق ذلك.

والنحلة تحتاج إلى غبار الطلع لأمور مختلفة في الخلية، وقد زودها خالقها بتجويف خاص لخزن هذه الحبوب في الوجه الخارجي لساق الرجل الخلفية، تسمى سلة الطلع، وجعل لها على الوجه الداخلي ارسخ الرجل الخلفية ما يشبه الفرشاة تستعملها الشغالة في تمشيط غبار الطلع وتكتيله تمهيدًا لجمعه في سلة الطلع.

ومن العجائب الـمذهلة التي أكتشفها العلـماء في النحلة، تلك الغدة التي في مؤخرة البطن،وقد سماها العلـماء غدة (ناسانوف)، وهذه الغدة تفرز رائحة خاصة، ومن العجيب أن نحل كل خلية يتعارف على رائحة تميز نحلها عن غيره، وتستطيع النحلة أن تعود إلى بيتها من مكان بعيد تهديها تلك الرائحة الـمميزة عن رائحة غيرها من النحل،وبوابو الخلية وحراسها يعرفون النحلة التي تتبع الخلية عن طريق الرائحة الـمميزة الـمنبعثة من النحلة.

والعجب أن النحل قادر على التعارف على رائحة جديدة عندما يحصل ما يستدعى ذلك، فمثلاً عندما تخرج طائفة من النحل لتشكل خلية جديدة، وعندما مزج العلـماء بطريقة علـمية طائفة من النحل مع طائفة أخرى وجدوا أن النحل بعد دمجة تعارف على رائحة واحدة جديدة تميزه عن غيره.

ومن عجائب هداية النحل أنه يبني جدران البيوت السداسية من الشمع الخالص الذي لا ينفذ منه الهواء، ولكنه عندما يغلق أبواب البيوت التي تحوي يرقات النحل بخلط الشمع بحبوب اللقاح، وبهذا يتسرب الهواء من خلال حبوب اللقاح، فتبقى اليرقات حية، ولو لـم يهديها ربها إلى ذلك لـماتت اليرقات، وزال النحل من فوق ظهر البسيطة.

وقد حدثنا ربنا فيما حدثنا عنه من آياته الباهرة التي تستدعي التأمل والتفكر إلى هدايته العجيبة للنحل ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

وقد اهتدى الـمسلـمون للـمنافع العظيمة التي في العسل، ولكن الضالون عن هدى الله يكتشفوا ما فيه من الـمنافع إلا في هذه الأيام، وقد اكتشف الباحثون حقائق مذهلة، فوجدوا أن العسل غذاء ودواء، وهو غذاء من نوع راق، يحوي على خصائص لا تكاد توجد في غيره، ووجدوا أنه علاج يكاد يصلح لجميع أنواع الأمراض، ولا يزال العلـم يكتشف في كل يوم في العسل نفعًا جديدًا.

كيف يدل النحل بعضه بعضًا على مكان الغذاء؟

مما لاحظه العلـماء الـمعاصرون الطريقة التي يدل بها النحل بعضه بعضًا على مكان الغذاء، يقول الدكتور/ يوسف عز الدين: (لو اكتشف أحد عمال النحل حقلاً أو كمية من النباتات تعتبر مصدرًا للغذاء؛ فإنه يعود للـمستعمرة ليخبر باقي العمال على هذا الكنز الذي اكتشفه، وذلك عن طريق طقوس رقص عجيبة تفعلها النحلة بطريقة غريزية دون أن تدري لـماذا تفعل هذا.

---

(١) النحل: ٦٨ - ٦٩.

إنها ترقص رقصات غريبة ذات مدلالوت معينة، إذ أن جسمها يصنع في أثناء الرقص زاوية تدل على زاوية الشمس، وإذا كان الحقل الذي اكتشفه قريبًا من الـمستعمرة فإن الرقصة في هذه الحالة تختلف عنها في حالة بُعد الحقل مسافة أطول.

ومن هذه الرقصات يفهم النحل أن حقلاً من البرسيم أو غيره من النباتات ذات الأزهار التي يحضر النحل غذاءه منها، يقع على بعد معين، والطريق إليه يقتضي السير بزاوية معينة بالنسبة لـمكان الشمس.

فيؤدي بعض العمال الرقصة نفسها، عند ذلك تطمئن النحلة التي اكتشفت الحقل إلى أن باقي النحل قد فهم ما تريد أن تقوله، فيطير باقي الأفراد، ويصلون مباشرة إلى ذلك الحقل لإحضار مزيد من الغذاء.

إن النحلة الـمكتشفة قد نقلت إلى النحل الذي في الـمستعمرة عددًا من الـمعلومات برقصتها، ولو حاولنا نحن البشر أن نتوصل إلى ما توصل إليه النحل من فهم لهذه الطلاسم عن طريق رسم بياني لاستغرق منا وقتًا لا يقل عن ثلث ساعة إن كان لدينا إلـمام كاف بالعلوم الرياضية، ولكن النحل يفهم كل ذلك في الحال، ويطير نحو الحقل في خط مستقيم ليحضر ما يلزمه من غذاء.

شيء مذهل لا يمكن تفسيره إلا إذا آمنا بوجود نفحة إلهية أودعها خالق الكون في هذه الكائنات الصغيرة التي لا تملك قدرًا من العقل أو قدرة على التفكير تمكنها من القيام بما يلزمها).

رؤية النحل ما لا نراه من الألوان:

ويذكر لنا الدكتور يوسف أن من عجائب النحل رؤيته (لونًا لا نراه نحن البشر، ولا يمكن أن نتصوره، وهو اللون فوق البنفسجي الذي نراه نحن أسود، فالنحل يرى الأشعة فوق البنفسجية)، ثم يبين لنا الحكمة من وراء رؤية النحل لذلك اللون فيقول: (والحكمة في ذلك هي أن تلك الأشعة هي الوحيدة القادرة على اختراق السحاب والنحل قد يعيش في مناطق يكسوها السحاب معظم شهور السنة، ورؤية

الشمس ضرورية لـمعرفة مكان الحقول التي بها الغذاء، وهنا تكمن الحكمة في رؤية النحل لذلك اللون فوق البنفسجي، فإنها بذلك يصبح في إمكانها رؤية الشمس من خلال السحب، فلا يموت النحل جوعًا في حالة اختفاء الشمس خلف الغمام، حقيقة مذهلة تدل على وجود مدبر ومقدر النحل قد يعيش في مناطق يكسوها السحاب معظم شهور السنة، ورؤية الشمس ضرورية لـمعرفة مكان الحقول التي بها الغذاء، وهنا تكمن الحكمة في رؤية النحل لذلك اللون فوق البنفسجي، فإنها بذلك يصبح في إمكانها رؤية الشمس من خلال السحب، فلا يموت النحل جوعًا في حالة اختفاء الشمس خلف الغمام، حقيقة مذهلة تدل على وجود خالق مدبر ومقدر يعلـم ما يصنع، إذ إن القدرة على رؤية ذلك اللون لا يمكن أن تكون قد اكتسبها النحل مع مرور الزمن، بل لابد أن تكون قد وجدت منذ أول لحظة خلق الله فيها النحل، إذ لو لـم توجد من أول الأمر، لا نقرض النحل في تلك الـمناطق منذ أمد بعيد).

هداية النمل وعجائب صنع الله فيه :

ويحدثنا ابن القيم عن نوع آخر من مخلوقات الله، ويبين لنا هداية الله لها في معاشها فيقول:

(وهذا النمل من أهدى الحيوانات، وهدايتها من أعجب شيء، فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلب قوتها، إن بعدت عليها الطريق، فإذا ظفرت به حملته وساقته في طرق معرجة بعيدة ذات صعود وهبوط في غاية من التوعر حتى تصل إلى بيوتها، فتخزن فيها أقواتها في وقت الإمكان.

إذا خزنتها عمدت إلى ما ينبت منها ففلقته فلقتين؛ لئلا ينبت فإن كان ينبت مع فلقة باثنتين فلقته بأربعة، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد انتظرت به يومًا ذا شمس فخرجت به، فنشرته على أبواب بيوتها، ثم أعادتها إليها، ولا تتغذى منها نملة مما جمعه غيرها.

ويكفي في هداية النمل ما حكاه الله – سبحانه– في القرآن عن النملة التي سمع سليمان ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(١)، فاستفتح خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته، ثم أتت بالاسم المبهم، ثم أتبعته بما بما يثبته من اسم الجنس إرادة للعموم، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنون من العسكر، ثم أخبرت عن سبب هذا ا لدخول، وهو خشية أن يصيبهم معرة الجيش، فيحطهم سليمان ﷺ وجنوده، ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك، وهذا من أعجب الهداية.

وتأمل كيف عظم الله –سبحانه– شأن النمل بقوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾(٢)،ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾(٣)،فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي، ودل على أن ذلك الوادي معروف بالنمل كوادي السباع ونحوه، ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم، فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكنًا لا يدخل عليهم فيها سواهم، ثم قالت:﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾(٤)، فجمعت بين أسمه وعينه، وعرفته بهما، وعرفت جنوده وقائدهم،ثم قالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(٥)، فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش، بكونهم لا يشعرون وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخذوا حذرهم، ويدخلوا مساكنهم، ولذلك تبسم نبي الله ضاحكًا من قولها، وأنه لموضع تعجب وتبسم.

وقد روي الزهري عن عبد الله بن عبد الله بن عيينة عن ابن عباس أن رسول

---

(١) النمل: ١٨.
(٢) النمل: ١٧.
(٣) النمل: ١٨.
(٤) النمل: ١٨.
(٥) النمل: ١٨.

الله ﷺ (نهى عن قتل النمل والنحل والهدهد والصرد)، وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة، فلدغته نملة، فأمر بجهازه فأخرج، وأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح! فهلا نملة واحدة!).

وروى عوف بن أبي جميلة عن قسامة ابن زهير، قال: قال أبو موسى الأشعري: إن لكل شيء سادة حتى النمل سادة.

ومن عجيب هدايتها أنها تعرف ربها بأنه فوق سمواته على عرشه، كما رواه الإمام أحمد في كتابه الزهد من أبي هريرة يرفعه، قال: (خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون، فإذا هم بنملة رافعة قوائمها إلى السماء تدعو مستلقية على ظهرها، فقال: ارجعوا فقد كفيتم أو سقيتم بغيركم) ولهذا الأثر عدة طرق، ورواه الطحاوي في التهذيب وغيره.

وفي «مسند الإمام أحمد»: (أن سليمان ابن داود خرج يستسقي، فرأى نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك، ليس بنا غنى عن سقياك ورزقك، فإما أن تسقينا وترزقنا، وإما أن تهلكنا، فقال ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم).

ولقد حدثت أن نملة خرجت من بيتها، فصادفت شق جرادة، فحاولت أن تحمله فلم تطق، فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها، قال: فرفعت ذلك من الأرض، فطافت في مكانه فلم تجده، فانصرفوا وتركوها، قال: فوضعته، فعادت تحاول حمله فلم تقدر، فذهبت، وجاءت بهم، فرفعته، فطافت فلم تجده فانصرفوا، قال: فعلت ذلك مراراً، فلما كان في المرة الأخرى استدار النمل حلقة ووضعوها في وسطها، وقطعوها عضواً عضواً، قال شيخنا: وقد حكيت له الحكاية فقال: هذا النمل فطره الله على قبح الكذب وعقوبة الكذاب.

والنمل من أحرص الحيوان، ويضرب بحرصه المثل، ويذكر أن سليمان ﷺ لما

رأى حرص النملة وشدة ادخارها للغذاء استحضر نملة وسألها كم تأكل نملة من الطعام كل سنة؟ قالت: ثلاث حبات من الحنطة، فأمر بإلقائها في قارورة، وسد فم القارورة، وجعل معها ثلاث حبات حنطة، وتركها سنة بعد ما قالت، ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة، فوجد حبة ونصف حبة، فقال: أين زعمك؟ أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات، فقالت: نعم، ولكن لـما رأيتك مشغولاً بمصالح بني جنسك حسبت الذي بقي من عمري فوجدته أكثر من الـمدة الـمضروبة، فاقتصرت على نصف القوت، واستبقيت نصفه استبقاء لنفسي، فعجب سليمان من شدة حرصها، وهذا من أعجب الهداية والعطية.

ومن حرصها أنها تكد طول الصيف، وتجمع للشتاء علـماً منها بإعواز الطلب في الشتاء، وتعذر الكسب فيه، وهي على ضعفها شديدة القوى، فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها، وتجره إلى بيتها.

وليس للنمل قائد ورئيس كما يكون للنحل إلا أن لها رائدًا يطلب الرزق، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات، وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها غير مختلسة من الحب شيئًا لنفسها دون صواحباتها.

ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط في عسل أو نحوه، فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماء أو يتخذ إناء كبيرًا، ويملؤه ماء ثم يضع فيه ذلك الشيء، فيأتي الذي يطيف به فلا يقدر عليه، فيتسلق في الحائط، ويمشي على السقف إلى أن يحاذي ذلك الشيء، فتلقي نفسها عليه، وجربنا نحن ذلك.

وأحمى صناع مرة طوقًا بالنار ورماه على الأرض ليبرد، واتفق أن اشتمل الطوق على نمل، فتوجهن في الجهات ليخرج، فلحقه وهج النار، فلزم الـمركز ووسط الطوق، وكان ذلك مركزًا له، وهو أبعد مكان من الـمحيط[1].

---

(١) «شفاء العليل» لابن القيم: ص١٠٤.

النمل الأبيض غذاؤه ومساكنه :

يحدثنا الأستاذ يوسف عز الدين: عما كشف العلم من أسرار هذا الكائن:(ومن الغرائز التي وهبها الله لمثل هذه الكائنات الضئيلة ما هو مذهل،يجعل كل ذي عقل من البشر يخر ساجدا للخالق العظيم).

على سبيل المثال ما نراه في مستعمرة نوع من الحشرات نطلق عليه اسم (النمل الأبيض)، تعيش هذه الحشرات أيضاً في مستعمرات، إذا زاد أفراد المستعمرة عن الحد المعقول بالنسبة لكمية الغذاء المتاحة، فإن هذه الحشرات تدرك هذه الحقيقة عن طريق الغريزة، فتبدأ الأفراد في التهام عدد كبير من البيض، وبذلك يسهم في حل مشكلة زيادة أفراد المستعمرة ومشكلة الغذاء، إذ أن التهام البيض يعتبر تغذية، وفي الوقت نفسه يقلل من عدد الذرية.

إن هذه الحشرات لا تدرك لماذا تفعل ذلك، ولكنها النفحة الإلهية التي تلهمها لعمل ما لا يمكن أن تدركه من الأشياء التي تعود عليها بالفائدة وتجنبها الفناء.

هذه الحشرات نفسها تتغذى على الأخشاب وتلتهمها بشراهة، إذ في بعض الأماكن الموبوءة بها قد يتناول أفراد الأسرة طعامهم على منضدة الطعام، ثم يذهبون في الصباح لتناول إفطارهم، فيجدون تلك المنضدة ضد تقوضت أركانها، وانهارت في ليلة واحدة.

وفي بعض جهات استراليا الموبوءة بتلك الحشرات المدمرة قد يسأل أحد السائحين وهو ناظر من نافذة القطار عن اسم القرية التي رآها على مدى البصر فيعتريه الذهول عندما يخبرونه أن تلك القرية لا تضم آدميين، ولكنها المساكن التي أقامها النمل الأبيض ليعيش بها.

هذه المساكن ترتفع عن سطح الأرض عدة أمتار وتصنعها الحشرات من مادة غريبة، هي خليط من لعابها وبعض المواد الأخرى، وهي أقوى من الأسمنت المسلح، ولا يمكن أن تخترقها الحشرات أو يتسرب إليه الماء من خلال جدرانها،

وبداخلها أنفاق متشعبة يعيش فيها النمل الأبيض.

وتستخدم هذه الحشرات للتخابر عن بعد نوعاً من الشيفرة تشبه شيفرة التلغراف، إذ تدق على جدران النفق برأسها دقات فيفهم باقي النمل ماذا تريد عن طريق تلك الدقات الشفرية، تفعل ذلك دون أن تدري ماذا تفعل، إنها تفعلها عن طريق الإلهام الإلهي الـمسمى الغريزة.

ولقد احتار العلـماء فترة طويلة من الزمن في تفسير إمكان حياة مثل هذه الحشرات عن طريق الغذاء على الأخشاب، والخشب لا يحتوي على أية من عضوية قابلة للهضم، وأخيراً اكتشفوا السر.

لقد وجدوا في داخل الجهاز الهضمي لأفراد هذه الحشرات حيوانات دقيقة أولية يتكون جسمها من خلية واحدة، وهذه الحيوانات الأولية تفرز أجسامها إفرازات تحول الخشب إلى مواد غذائية قابلة للهضم هي التي تغذي النمل الأبيض.

ومن العجيب أنه لـم يحدث إطلاقاً أن اكتشفت نملة بيضاء واحدة تخللت أمعائها من هذه الحيوانات الأولية، ولو لـم توجد هذه الحيوانات داخل أمعاء النمل الأبيض منذ بدء خلقها لـما أمكنها الحياة، ولانقرضت منذ أول جيل من أجيالها، هل من الـممكن أن يحدث هذا عن طريق الـمصادفة أم هو شيء مقدر مدبر مرسوم.

النمل يربي الـمواشي ويفلح الأرض:

ومن عجائب النمل ما ذكره الدكتور يوسف عز الدين، فقد ذكر أن النمل استأنس مئات من الحيوانات الأدنى منه شأناً، بينما لـم يستأنس الإنسان سوى نحو عشرين من الحيوانات الوحشية التي يسخرها لـمنفعته ومتعته، ولقد عرف النمل الزرع والرعي عن طريق الغريزة.

إن حشرات الـمن التي يطلق أحياناً اسم (قمل النبات) التي نراها على أوراق

بعض النبات يرعاها النمل ليستفيد منها. ففي الربيع الباكر يرسل النمل الرسل لتجمع له بيض هذا الـمن، فإذا جاءوا به وضعوه في مستعمراتهم حيث يضعون بيضهم، ويهتمون ببيض هذه الحشرات كما يهتمون ببيضهم فإذا فقس بيض الـمن وخرجت منه الصغار أطعموها وأكرموها، وبعد فترة قصيرة يأخذ الـمن يدر سائلاً حلواً كالعسل كما تدر البقرة اللبن، ويتولى النمل جلب هذا الـمن للحصول على هذا السائل وكأنها أبقار.

ولا يعتني النمل بتربية (الـمواشي) هذه وحدها، بل يعتني كذلك بالزرع وفلاحة الأرض، لقد شاهد أحد العلـماء في إحدى الغابات قطعة من الأرض وفلاحة الأرض، قد نما بها أرز قصير من نوع نصف يرى، كانت مساحة القطعة خمسة أقدام طولاً في ثلاثة عرضًا، وكان طول الأرز نحو ستة (سنتيمترات)، ويتراءى للناظر إلى هذه البقعة من الأرض أن أحدًا لابد يعتني بها، فالطينة حول الجذور كانت مشققة، والأعشاب الغريبة كانت مستأصلة، والغريب أنه لـم يكن على مقربة من هذا الـمكان عود آخر من الأرز، لـم يتم من تلقاء نفسه، وإنما زرعه زارع.

ولوحظ أن طوائف النمل تأتي إلى هذا الـمزروع وتذهب عنه، فانبطح العالـم على الأرض يلاحظ ما يصنعه، ولـم يلبث أن عرف أن هذا النمل هو القائم بزراعة الأرز في تلك البقعة من الأرض، وأنه اتخذ من زراعتها مهنة له، تشغل كل وقته، فبعضه كان يشق الأرض ويحرثها، وبعض آخر كان يزيل الأعشاب الضارة، فإذا ظهر عود من عشب غريب قام إليه بعض النمل، فيقضمونه، ثم يحملونه بعيدًا من الـمزرعة.

نما الأرز حتى بلغ طوله ستين سنتيمترًا، وكانت حبوب الأرز، فتنزع كل شغالة من النمل حبة من تلك الحبوب، وتهبط بها سريعًا إلى الأرض، ثم تذهب بها إلى مخازن تحت الأرض.

بل الأعجب من ذلك أن طائفة من النمل عيشة مدنية في بيوت كبيوتنا ذات شقق وطبقات، أجزاء منها تحت الأرض، وأجزاء فوق الأرض، في هذه الـمدن نجد الخدم والعبيدة.

بل الأعجب من ذلك نجد الـممرضات اللاتي تعني بالـمرضي ليلاً ونهارًا، ونجد منها من يرفع جثث من يموت من النمل...

يفعل ذلك النوع من النمل كل هذا بدون تفكير، إذ يتم بالغريزة التي أودعها الله في أجسامهم الصغيرة[1].

* * *

(١) «العقيدة في الله» ص١٢٨ - ١٤٧.

١٠

توحيد الربوبية والسعادة الحقيقة

يقرر أطباء النفوس أن انطلاق الفكر في آفاق السماء والأرض وما بث فيها من دابة يكون علاجًا للكثير من الأمراض النفسية، وحلاً للكثير من الـمشكلات العويصة التي يتعرض لها ابن آدم، وذلك أن الأمراض النفسية والـمشكلات الـمستعصية تجعل صاحبها مقوقعًا حول نفسه ومشكلته، فإذا نجح في تحطيم هذا السياج الحديدي الذي لفته الـمشكلة أو الـمرض حول عنقه فقد تخلص من مرضه، ويكون ذلك بالتفكر في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار.

والنظر في ملكوت الله تبارك وتعالى كأحد أساليب الشفاء والخروج من الـمأزق النفسي.

يقول الدكتور منصور فهمي باشا في مقال له تحت عنوان: «خواطر نفس: أنت أنت الله» فقال ما خلاصته:

«إذا ما اتجه الفكر في السموات حيث انتشرت النجوم في الليل، وإذا ما خشعت النفس من رهبة السكون، فإنك- يا خالقي- تشرق بوجهك الكريم من خلال هذه الآفاق، وحينئذ تبدو الآفاق الـمظلـمة كأنها بسمة منيرة، وتتغنى النفس الخاشعة بقولها: أنت أنت الله».

«وإذا ما كان الـمتأمل على شاطئ البحر الخضم، وأرسل الطرف بعيدًا بعيدًا... إذ ذاك يشعر الـمتأمل بعظمة واسعة دون عظمة البحر الواسع، وإذ ذاك تقر العين باطمئنان الفُلْك الجاري على أديم الـماء الـممهد، ويدق الفوائد بدقات صداها في النفس فيهتف: أنت أنت الله».

«وإذا ما انطلقت السفينة بعيدًا في البحر اللجي، وهبت الزوابع، وتسابقت الرياح... ولعبت بالسفينة الأمواج، وأشرفت على الغرق... إذ ذاك يشق ضياؤك هذه الظلـمات،

وتحيط رأفتك بهذه الأخطار والمهالك... وإذ ذاك يردد القلب واللسان: أنت أنت الله».

«وإذا ما اشتد المرض بمن أحاطت به عناية الأطباء، وسهر الأوفياء، ثم ضعفت حيلة الطبيب، ولم ينفع وفاء الحبيب، واستحال الرجاء إلى بلاء... إذ ذاك تتجلى على عرش عظمتك، والنفوس جازعة. والأيدي راجفة، والقلوب واجفة لتقول: «وأنا قضيت» ويقول الطبيب والقريب والحبيب: «لك الأمر: أنت أنت الله».

«وإذا ما بين الدنيا إنسان وباينته، إذ ينظر إلى المال فيلقاه فانيًا، وإلى الجاه فيلقاه ذاويا، وإلى الأماني فليلقاها زائلة، وإلى الشهوات فيلقاها خادعة... إذ ذاك يستغنى عن المال والجاه... وبين جاه يزول، وأمل يدول، هنا لا يملأ النفس إلا ذكرك وأهتف فأقول: «أنت أنت الله».

«وإذا ما وقعت العين على زهرة تتفتح، وإذا ما أعجب المعجبون بجمال الفجر... إذ ذاك يشرق في قلوبنا نورك الجميل فنراك ونقول: «أنت أنت الله».

«وإذا ما مست النفوس مظاهر عظمتك ورحمتك وقدرتك ونعمك التي لا تحصى على خلقك... جعلت القلوب تردد، والمشاعر تهتف، والعقول تنادي، والألسنة تلهج وتقول: «أنت أنت الله».

نعم، ثم نعم «أنت أنت الله» الموجود بلا بداية، والباقي بلا نهاية، ولا حول ولا قوة إلا بك.

ورغم أن توحيد الربوبية علمي خبري إلا أن له دورًا عظيمًا في سعادة النفس، وفرح القلوب، خاصة فيما يعترض طريق ابن آدم من مشكلات ومضايقات طوال حياته، فكل ما يشغل الإنسان خلال رحلة عمره هو جلب المنافع ودفع المضار، فالمرض مضرة والشفاء منفعة، والسعة في الرزق منفعة والفقر مضرة، وتعرض النفس للهلاك والقتل والخوف والفزع مضرة، والنجاة من الهلاك والأمن من الخوف منفعة، والهداية إلى الطريق المستقيم من أعظم المنافع، والضلال وتنكب الصراط من أكبر المضار، فإذا وفق الإنسان في توحيد مصدر النفع والضر

فقد نال السعادة الحقيقية وتوحيد مصدر النفع والضر من أسس توحيد الربوبية، وذلك أن الله ﷻ هو النافع الضار المعطي المناع المحيي المميت، يبسط الرزق لمن يشاء من عباده برحمته ويضيق على من يشاء بحكمته.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

وقد جمع ذلك كله دعاء أبي الأنبياء عليه السلام بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى

---

(١) يونس: ١٠٧.
(٢) الأنعام: ١٧.
(٣) فاطر: ٢.

يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾(١).

فجلب منافع الدنيا والآخرة منه وحدة، ودفع مضار الدنيا والآخرة لا تكون إلا بحوله وقوته سبحانه والشقاء كل الشقاء أن تتعدد مصادر النفع والضر عند الإنسان، فتتشتت أهدافه وتتعدد أغراضه، وتتباين وجهاته، وهذا هو الشرك الذي يتعس صاحبه ويشقيه في الدنيا والآخرة.

﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾(٣).

مثل عجيب يصور الحيرة والتشتت والضياع الذي يعانيه من أشرك في ربوبية الله أو في إلوهيته على حد سواء.

وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في جميع الأحوال.

فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذي يقطع الرحلة على هذه الأرض على هدى، لأن بصره أبداً معلق بنجم واحد على الأفق فلا يلتوي به الطريق. ولأنه يعرف مصدراً واحداً للحياة والقوة والرزق، ومصدراً واحداً للنفع والضر، ومصدراً واحداً للمنح والمنع، فتستقيم خطاه إلى هذا المصدر الواحد، يستمد منه وحده، ويعلق يديه بحبل واحد يشد عروته. ويطمئن اتجاهه إلى هدف واحد لا يزوغ عنه بصره. ويخدم سيداً واحداً يعرف ماذا يرضيه فيفعله وماذا يغضبه فيتقيه.. وبذلك تتجمع طاقته وتتوحد، فينتج بكل طاقته وجهده وهو ثابت القدمين على الأرض متطلع إلى إله واحد في السماء.

---

(١) الشعراء: ٧٨-٨٩.

(٢) آل عمران: ١٥١.

(٣) الزمر: ٩.

ويعقب على هذا الـمثل الناطق الـموحي، بالحمد لله الذي اختار لعباده الراحة والأمن والطمأنينة والاستقامة والاستقرار. وهم مع هذا ينحرفون، وأكثرهم لا يعلـمون، وهذا مثل من الأمثلة التي يضربها القرآن للناس لعلهم يتذكرون. وهو قرآن عربي، مستقيم، واضح، لا لبس فيه ولا عوج ولا انحراف. يخاطب الفطرة بمنطقها القريب الـمفهوم(١).

وما أكثر صور شرك الربوبية في مجتمعاتنا الإسلامية فضلاً عن الـمجتمعات الكفرية، وغالب الصور الشركية يدور حول محوري الرغبة والرهبة مما سوى الله ﷻ فمن أراد السعادة الحقيقية فلا يخشى إلا الله، ولا يرغب فيما سواه.

فالرهبة من الجن أو غيرهم من خلق الله ﷻ، والاستغاثة بهم، وتقديم القرابين لهم، صورة من صور الشرك في ربوبية الله ﷻ.

وتقديس الـمشايخ من رجال التصوف والـمشعوذين، أو حتى تقديس العلـماء وتقديم أرائهم وطاعتهم في غير طاعة الله.

واعتقاد كثير من عوام الـمسلـمين أن في الكون أقطابًا وأبدالاً من الأولياء والصالحين لهم قدر من التصرف والتدبير في هذا الكون.

وكذلك الخنوع للحكام والخضوع التام لهم وطاعتهم بدون إكراه فيما يغضب الله كل هذه من صور شرك الربوبية التي من وقع في واحدة منها فقد الأمن في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾(٢).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

(١) «الظلال» ٥/ ٣٠٥٠.

(٢) الأنعام: ٨١-٨٢.